المؤسسة العربية الحديثة

هذه السلسلة ..

عندما تتحول حياة الفرد منا إلى صحراء جرداء ..

وعندما تجف مشاعرنا وتستحيل إلى أغصان يابسة ..

يتوق قلب كل منا إلى الحب .. الحب الذي يروى هذه المشاعر .

فيعيد إلى أوراقها الخضرة .. ويبدل صحراءها إلى بساتين مزهرة ، ورياض غناء .

إنه الحب .. الحب بمعناه الرحب ؛ حب الحبيب .. حب الابن .. حب الأب .. حب الأم .. حب الوطن .. حب البشر ..

هذه الكلمة السحرية التي تذيب أحجار القلوب .. وتنبت الزهور اليانعة في صخور المشاعر الصلدة ..

إنها الزهور التي ينشدها كل منا في لحظات اليأس .. وفي لحظات الغضب.. وفي لحظات الكراهية.. وفي لحظات الجفاف.. فتشيع عبيرها الفواح في ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامي ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شيء خلقه الله في هذا الوجود !!

وفي هذا الزمن الذي طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفي كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. في بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

١ - مشاعر أب ..

ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجهها وهي تناديه قائلة :

- (مصطفى) .. (مصطفى) ..

التفت إليها وقد ابتسم بدوره وهو يمد لها يده مصافحًا:

- أهلاً (ميرفت) .. إنني سعيد لرؤيتك ..

قالت له معاتبة :

- لا أظن ذلك .. لو كان هذا حقيقيًا لجئت لزيارتنا .. ولما كنت قد انتظرت حتى ألتقي بك مصادفة ..

قال لها وهو محتفظ بابتسامته :

- لكني كنت سآتي لزيارتكم بالفعل .. خاصة أن الحاجة والدتك قد أوحشتني ..

ـ لو كان ما تقوله صحيحًا .. لكنت قد فعلت ذلك فى زيارتك السابقة ، بدلاً من أن نعلم بحضورك إلى البلدة .. وسفرك دون أن نراك .. ولو لبضع ساعات ..

ـ معك حق .. لكنى لم أقض فى البلدة سوى يوم واحد فقط .. ثم عدت إلى الإسكندرية ..

ـ يوم أو أسبوع هذا لا يمنع أن نراك .. فالمسافة بين منزلنا ومنزلكم لا تتجاوز عشر دقائق فقط سيرًا على الأقدام ..

لماذا تباعدت هكذا يا (مصطفى) لقد عشنا طفولتنا معًا وبيننا عشرة وصداقة .. هل نسيت ؟ أم هانت عليك العشرة والصداقة ؟

قال وقد أفلتت الكلمات منه :

ـ المشكلة .. أننى لم أتمكن من النسيان ..

نظرت إليه بتساؤل قائلة :

ـ ماذا تعنى بذلك ؟

(★) صدر الجزء الأول من الرواية بعنوان « سنفترق دائمًا » العدد (٩٠)

قال محاولاً تدارك كلماته :

ـ لا شىء .. كل ما هنالك أن ظروفى فى العمل قد اختلفت عن ذى قبل .. كما أنه لم يعد لدى فى البلدة أحد بعد وفاة عمتى .. لذا فقد أصبحت أفضل قضاء إجازاتى فى الإسكندرية .. فأنا تأقلمت على الحياة هناك ..

ولم يحاول أن يخبرها بما يخفيه فى نفسه .. وعجزه عن التغلب على حبه لها .. برغم إدراكه أنها ليست من نصيبه .. ولن تكون كذلك فى يوم من الأيام ، فقد استولى (عماد) على قلبها منذ الصبا ..

وبرغم أنه بارك حبهما .. إلا أنه لم يتمكن من مقاومة مشاعره تجاه (ميرفت) التى لم تقتنع بالصداقة وظلت تتعذب بحبه لها .. فآثر الابتعاد بقدر الإمكان لكى لايزيد من عذابه ، وعلى أمل أن يساعده البعد على النسيان .. سألته قائلة :

ـ ألم يرسل لك (عماد) خطابًا فى الفترة الأخيرة ؟

- في الحقيقة .. آخر خطاب تسلمته منه كان منذ أربعة أشهر تقريبًا .. ولم يصلني بعدها أي خطاب آخر .. برغم أنني أرسلت إليه خطابين على الصندوق البريدي الذي حدده لي .. لكن لم يصلني منه أي رد ..

وصمت برهة قبل أن يستطرد قائلاً وهو ينظر إلى عينيها :

- وأنت ؟ ألم يصلك منه أي خطابات في الفترة الأخيرة ؟

- لقد تسلمت خطابًا منه منذ أسبوع ..

- حسن .. وما هي أخباره ؟

- إنه يواظب على الدراسة والعمل برغم بعض الصعوبات التي أشار إليها في حياته هناك ..

- بالطبع الحياة في أمريكا ليست سهلة .. لكنني أعرف (عماد) جيدًا كما تعرفينه مثلي .. إنه قوي الإرادة

والذكاء .. وإذا ما صمم على تحقيق شيء .. فلابد له أن يناله ، لذا فأنا واثق أنه سيحقق ما يريده .. وسيتغلب على أية صعوبات يواجهها .. مهما كانت ضراوتها ..

المهم .. ألم يخطرك بما إذا كان سيأتي إلى مصر في إجازة قريبًا ؟

- كلا .. لم يذكر شيئًا عن ذلك ..

- وماذا عن عقد القران ؟

- سيتم بعد حصوله على الدكتوراه واستلامه لوظيفة مناسبة في أمريكا تتلاءم مع مؤهلاته ..

- لكن ذلك قد يستغرق وقتًا طويلاً ..

- لقد كان (عماد) واضحًا بهذا الشأن منذ البداية .. لا زواج قبل الحصول على الدكتوراه ..

قال وقد انتابه إحساس بالقلق تجاهها :

- بلى كان الواضح لى وللجميع أنه فى سبيله للاقتران بك بعد فترة قصيرة من الخطبة .. وقبل أن يفاجئ الجميع بسفره إلى (أمريكا) ..

تنهدت (ميرفت) قائلة :

- لقد فات أوان هذا الكلام ..

- (ميرفت) .. أنت تعرفين مدى أهميتك بالنسبة لى .. برغم صداقتى لـ (عماد) .. فأنا أطالبك بأن تكونى أكثر حزمًا معه بهذا الشأن ..

فأنت تعيشين هنا .. فى هذه البلدة الريفية الصغيرة .. وليس فى القاهرة أو الإسكندرية .. والأقاويل هنا كثيرة .. وكلام الناس لا يرحم .. ثم إننى لا أرى ما يمنع من حضوره ليعقد قرانه عليك .. ثم يسافر ليدبر أمركما معًا بعدها ..

- إننى لا أريد أن أضغط عليه أكثر مما يجب .. وعلى أية حال إن ما بيننا أكبر وأقوى من أى ارتباط موثق .. وبالنسبة لى فإننى أعد نفسى زوجة له مهما امتد بى الزمن ..

نظر إليها بأسى قائلاً :

- أتحبينه إلى هذا الحد ؟

تطلعت إليه قائلة :

- لا بد أنك تعرف ذلك أكثر من غيرك .. فقد عشت معنا الطفولة والصبا لتكون شاهدًا على هذا الحب ..

- نعم .. لكنى أريد منك أن تعدى نفسك لكل الاحتمالات .. بدلاً من أن تلزمى نفسك ...

قالت له مقاطعة وهى تشير بيدها لتحول بينه وبين الاستمرار فى الكلام :

- لا يا مصطفى .. لا تكمل .. أنت تعرف أننى لا أستطيع أن أتصور سوى احتمال واحد ، وهو أن أقضى بقية حياتى مع (عماد) ..

- وماذا لو لم يكن وفيًا لعهده مثلك ؟ أتضيعين شبابك وتسجنين نفسك وراء قضبان الوفاء لهذا الحب ؟

إننى لا أحاول أن أقلل من شأن حب (عماد) لك أو أثير قلقك بشأنه ؛ لكن يجب أن تطالبيه بأن يكون أكثر وضوحًا فى التزامه معك ..

- إننى أقدر نصيحتك .. وسوف أعمل بها ..

- وأنا أتمنى أن تحصلى على السعادة التى ترجينها ..

- وهذا ما أتمناه لك أيضًا يا (مصطفى) .. ألم تعثر على الفتاة المناسبة بعد ؟ ألم تك ما زلت مضربًا عن الزواج ؟

اكتست ابتسامته بمسحة من الحزن وهو ينظر إليها قائلاً :

- عندما أعثر عليها ستكونين أول من تعرفين بذلك ..

ومد لها يده مصافحًا وهو يقول :

- والآن اسمحى لى .. لابد أن أعد نفسى للسفر ..

صافحته قائلة :

- لا تتأخر علينا كثيرًا يا (مصطفى) ..

* * *

وفى مركز الأبحاث الفضائية بولاية (فيرجينيا) الأمريكية ، جلس الدكتور (نافع) يراجع نتيجة فحص بعض العينات التى أحضرها رواد الفضاء الأمريكيين على شاشة الكومبيوتر الموضوع أمامه ..

بينما كان (عماد) قد انتهى بدوره من الفحص الجيولجى لبعض العينات الفضائية الأخرى ..

وقد استغرق منه هذا الفحص جهدًا غير عادى .. حيث قام بتدوين ملاحظته بشأن هذه العينات على الأوراق .. وتقدم بها إلى الدكتور (نافع) .. قائلاً :

- لقد انتهيت من فحص عينات المجموعة (ج) .. وقمت بتدوين الملاحظات المطلوبة بشأنها ..

نظر إليه الدكتور (نافع) برهة .. ثم عاد لينظر إلى شاشة الكومبيوتر أمامه وقد أطلت من عينيه نظرة شاردة ، تدل على أنه لا يتابع البيانات المسجلة أمامه على الشاشة بالدقة ، وبالقدر الكافى من التركيز ..

لاحظ (عماد) ذلك وقد عاد ليلح عليه قائلاً :

- يا دكتور (نافع) العينات ..

أطلق الدكتور (نافع) زفرة قصيرة قائلاً :

- ألم تنته من فحصها وتدوين ملاحظاتك بشأنها ؟

- بلى ..

- إذن تولَّ أمر تسجيل هذه البيانات على جهاز الكومبيوتر الآخر ..

قال له (عماد) باستغراب :

- دون أن تفحصها ؟

أغلق الدكتور (عمد) جهاز الكومبيوتر وهو يتراجع في مقعده وقد أطلق زفرة طويلة هذه المرة قائلاً :

- اعذرني يا (عماد) .. إنني غير قادر على التركيز الآن .. حتى إنني لا أستطيع استيعاب البيانات المسجلة أمامي بشأن العينات السابقة ..

قال (عماد) وهو ينظر إلى أستاذه بقلق :

- هذا ما لاحظته .. ما الذي يقلقك يا دكتور ؟

دقَّ الدكتور (نافع) بأنامله على المائدة الموضوعة أمامه وهو ينظر إلى الجدار المواجه له قائلاً :

- ابنتي .. ابنتي يا (عماد) ..

نظر (عماد) إليه بدهشة قائلاً :

- (نورا) .. ماذا بها ؟

قال وفي عينيه نظرة ضيق :

- إنني غير راضٍ عن تصرفاتها ..

- هل فعلت شيئًا أغضبك ؟

قال وهو يشبك أصابعه في بعضها :

- بل قل أشياء .. إنني لا أدري ما الذي حدث لهذه الفتاة ؟

قال له (عماد) متحرجًا :

- فى الحقيقة يا دكتور .. أنا لا أسمح لنفسى بالتدخل فى مثل هذه الأمور الشخصية .. لكن لو سمحت لى أن أسألك ما هو الذى يضايقك منها بالضبط ؟

قاطعه الدكتور (نافع) قائلاً :

- تصرفاتها الطائشة ! إنها تتصرف بطريقة فتاة أمريكية متحررة .. ونسيت أننا وإن كنا نعيش فى هذا المجتمع .. ونحمل جنسية هذه الدولة ، إلا أننا مصريون .. جذورنا تشدك هناك فى مصر .. وليس هنا .. ولانستطيع أن نقتلع أنفسنا من هذه الجذور ، حتى لو عشنا فى بلاد أخرى مختلفة ، وامتد بنا العمر بها ..

- هل تسمح لى أن أتجرأ وأبدى رأيًا فى هذا الأمر ؟

- تكلم يا (عماد) .. لم كل هذه التحفظات ؟ لو سمحت أن أسألك .. لو سمحت أن أبدى رأيًا .. أنت تعرف أنك لم تعد بالنسبة لى طالبًا أشرف على دراسته .. أو مساعدًا لى فى عملى فقط ..

لقد توثقت علاقتى بك حتى صرت أعتبرك بمثابة ابن لى .. وكنت أظنك تشعر بهذا وتفهمه ..

قال (عماد) وقد أسعدته هذه الكلمات :

- بالطبع يا دكتور .. ويشرفنى ذلك ..

- إذن قل ما عندك ..

- إننى أرى أنك متساهل معها بعض الشىء .. وربما كان هذا التساهل هو الذى أدى بها إلى التمادى فى هذه التصرفات الطائشة ..

قال الدكتور (نافع) معقبًا :

- معك حق .. ربما أكون قد أخطأت بتساهلى معها منذ البداية .. لكن حرمانها من الأم مبكرًا .. والغربة التى فرضتها عليها هنا .. بالإضافة لظروف عملى التى اضطرتنى إلى الابتعاد عنها لفترات طويلة .. دون أن أوليها العناية الكافية .. كل ذلك جعلنى أفرط فى تدليلها لتعويضها عن تلك الأشياء ..

- أظن أنه قد آن الأوان للتصرف معها بطريقة مختلفة ، وقبل أن تتمادى فى طيشها ..

نظر الدكتور (نافع) إليه قائلاً :

- أتظن أننى أستطيع ذلك الآن ؟

- ولمَ لا ؟

- أخشى أن الأمر قد خرج من يدى ..

- لا تقل ذلك يا دكتور (نافع) .. فهى فى النهاية ابنتك وأنت والدها .. من حقك أن توجهها إلى الأسلوب السليم ، وأن تجبرها على ذلك لو اضطرك الأمر .. فأنت أب .. والأب مسئول .. ما دامت ابنته لاتزال تعيش فى كنفه ولم تتزوج بعد ..

ابتسم الدكتور (عماد) بمرارة قائلاً :

- أنت تتكلم بأسلوب شاب ريفى لم يقدر له أن يعيش فى هذا المجتمع الجديد بالقدر الكافى ..

إن أسلوب الحياة الأمريكية .. والتقاليد والقوانين التى يفرضها المجتمع هنا لا تعطى هذه السلطات للأب .. حيث يمكن للابن أو للابنة أن تنفصل عن والديها وتستقل بمسكن بمفردها ، وتعيش الحياة بالطريقة التى تحلو لها دون أى تدخل أو اعتراض من الأسرة التى تنتمى إليها .. والحمد لله أن ابنتى لم تصل إلى هذا الحد بعد .. برغم أنها بلغت سن الرشد ولا يستطيع أحد منعها من ذلك ..

- لا أظن أن (نورا) قد تحولت إلى فتاة أمريكية تماماً إلى الحد الذى تنكر معه سلطاتك الأبوية عليها ..

- ربما .. إننى أحاول تجنب ذلك حتى لاتفلت الأمور من يدى تماماً .. فـ (نورا) تمر بمرحلة تحد ورفض لأشياء كثيرة .. لم أعهد رفضها لها من قبل .. وأخشى لو أننى بالغت فى تشددى معها أن أفقدها تماماً ..

خاصة وأن ظروف الحياة هنا تساعد على ذلك كما قلت لك ..

إن السبيل الوحيد لممارسة سلطتى الأبوية الحقيقية كما قلت ، هى أن نعود معًا إلى مصر .. حيث أسلوب الحياة وتقاليد المجتمع هناك مختلفة .. وحتى هذا قد لا يكون ذا جدوى .. إذ إنها تستطيع أن ترفض العودة معى .. وتصر على البقاء هنا .. والتمسك بالجنسية الأمريكية ..

قال (عماد) وهو يشعر بالتعاطف :

- هل يمكن أن يصل بها التمرد إلى هذا الحد ؟

- مع الأسف .. من الممكن أن يحدث هذا .. إننى أكاد لا أعرف ابنتى فبرغم اعترافى بتدليلى لها .. إلا أننى ربيتها أفضل تربية .. وحرصت على أن أغرس فيها نفس القيم والأخلاق التى تربيت عليها ..

لقد بذلت كل الجهد منذ أن كانت طفلة صغيرة لكى أحصنها ضد أخلاقيات الحياة هنا .. والإغواءات العديدة المنتشرة فى المجتمع الأمريكى .. بالإضافة إلى إصرارى على تذكرتها بجذورها وجنسيتها المصرية .. وقد بدا لى أنها تتفهم كل ذلك .. فإلى وقت قريب كانت تمارس حياتها وحريتها بشكل معتدل .. وبرغم انطلاقها وحيويتها التى تتميز بها إلا أنها لم تخرج على نطاق الالتزامات التى حددتها لها والتى ألزمت نفسها بها .. فلماذا هذا التحول المفاجئ ؟ وما الذى طرأ عليها لتتصرف على هذا النحو ؟ سهر إلى وقت متأخر خارج المنزل .. اختلاط بمجموعة من الشباب والشابات فى حفلات للرقص والخلاعة .. حتى دراستها بدأت تهملها .. وترفض أى نصيحة أو نقد أوجهه لها ..

قال (عماد) وقد ازداد تعاطفه :

- إننى أقدر قلقك عليها ..

- لقد بدأ هذا الأمر ينعكس علىّ ويؤثر فى قدرتى على التركيز فى عملى .. فأنا أخشى على ابنتى من الضياع ..

- هل تسمح لى بالتحدث معها ؟

- ليتك تفعل .. فأنا أعرف أنها تحمل لك قدرًا من الإعجاب والتقدير .. ربما استطعت أن تردها إلى عقلها .. وتعيدها إلى السلوك القديم ..

* * *

٢ - إنى أحبك ..

دخل (عماد) إلى الملهى الليلى وهو يشعر بثقل المهمة الملقاة على عاتقه والتى ألزم نفسه بها ..

فهو بطبيعته لا يحب التردد على هذه الأماكن ، وينتابه إحساس بالضيق والاغتراب فى هذا الجو الصاخب ، وهذه المظاهر الشاذة التى يبدو عليها مرتادو هذه الأماكن .. من ثياب غريبة .. وشعور طويلة ، وموسيقى ورقص أشبه بالجنون .. كما أن كل هذا الكم من دخان السجائر ورائحة الخمور التى تنبعث فى المكان تكاد أن تخنقه ..

لكنه وعد الدكتور (نافع) بتقديم يد العون .. وعليه أن يفى بوعده .. خاصة أنه يدين له بكل شىء فى حياته هنا تقريبًا ..

وما لبث أن لمحها وهى مستغرقة فى الرقص ..

كانت ترقص بطريقة هستيرية ، وقد تدلت سيجارة من بين شفتيها وسط هذا الحشد من الشابات والشبان الذين يشاركونها الرقص .. كما لو كانوا ينتمون إلى عالم آخر غير الذى يعرفه ..

وأحس أنها تبدو مختلفة كثيرًا عما رآها عليه من قبل .. حقًا إنها ما زالت جميلة ولديها هذه الأنوثة الطاغية .. تلك الأنوثة التى حركت فيه أحاسيس غريبة لم يعهدها فى نفسه من قبل .. أحاسيس تختلف تمامًا عن مشاعره تجاه (ميرفت) ..

(فميرفت) برقتها وعذوبتها ووجهها الملائكى الذى استطاع أن يحرك وجدانه ، ويصل إلى أغوار الجانب العاطفى الذى لم يكن يعرفه هو حتى فى نفسه تختلف تمامًا عن تلك الفتاة التى تجذبه - كلما رآها - إلى عالم من الانبهار والإثارة .. عالم يرفضه أحيانًا بقدر ما ينجذب إليه ..

توقفت الموسيقى لبضع دقائق قبل أن تعاود صخبها من جديد .. وتوجهت (نورا) بصحبة صديقها الذى كانت تراقصه إلى إحدى الموائد التى التف حولها عدد من الشبان والشابات .. لكنه اعترض طريقها قائلاً :

- (نورا) .. أريد أن أحدثك ..

نظرت إليه بدهشة تمتزج بالسخرية قائلة :

- أنت ؟ ماذا تفعل هنا ؟ هل قررت أن تهجر أبحاثك ودراستك لتتردد على الديسكوهات والملاهى الليلية ؟

قال لها بجدية :

- لقد جئت إلى هنا من أجلك ..

قالت له بسخرية :

- من أجلى أنا ؟ ولم كل هذا التواضع ؟ لم أكن أعرف أننى مهمة لك إلى هذا الحد ..

لاحظ (عماد) أنها تترنح قليلاً .. ربما من أثر الخمر الذى شربته والذى تنبعث رائحته من فمها ..

فقال لها بضيق :

- (نورا) .. أرجوك تعالى معى - أريد أن أتحدث معك قليلاً ..

قالت له معترضة :

- لا شأن لك بى ..

- لكن والدك قلق بشأنك ..

قالت متهكمة :

- والدى ؟ إن هذا هو الذى أتى بك إلى هذا المكان ؟ كان يجب أن أعرف ذلك .. لقد أرسلك لتسدى لى النصح وتعيدنى إلى الصواب من وجهة نظره بالطبع ..

قال (عماد) آسفًا :

- (نورا) .. إن مكانك ليس هنا .. وهذا الذى تفعلينه لا يليق بك ..

قالت وهى تشير له بإصبعها :

- أنت لست وصيًا على ..

سألها زميلها متبرمًا بحديثهما الذى لا يفهمه :

- ماذا يريد منك هذا الشخص ؟

قالت وهى تنظر إلى (عماد) باستخفاف :

- إنه يظن أنه يستطيع أن يفرض على وصايته ..

قال (عماد) :

- أنا هنا بناء على طلب أبيك .. وهو قد طلب منى أن أعيدك إلى المنزل ..

أشاحت بيدها قائلة :

- هنا لا يستطيع أحد أن يفرض على أحد ما يفعله .. أتظن أنك ما زلت فى ذلك البلد المتخلف الذى جئت منه ..

انظر حولك يا عزيزى .. أنت هنا فى (أمريكا) .. بلد الحريات ..

جذبها من ذراعها قائلاً بإصرار :

- وبالرغم من ذلك ستأتين معى ..

تدخل زميلها محاولاً منعه ، وهو يدفعه بيده إلى الوراء .. لكن (عماد) دفعه بدوره إلى الخلف .. فسدد له لكمة رد عليها (عماد) بلكمة أقوى منها ، جعلته يصطدم بأحد المقاعد وقد كاد أن يسقط على الأرض .. وهم زملاؤه بالتدخل وقد تحفز (عماد) لمواجهتهم .. لكنها حالت دون تطور الأمور بينهم .. قائلة :

- أرجوكم ! لا داعى لذلك ..

ثم التفتت إليه وهى تقول مستطردة :

- سآتى معك ..

جلست بجانبه فى السيارة التى تولت قيادتها وهى واجمة دون أن تتحدث إليه بشىء ..

وقد حاول أن يقطع هذا الصمت الذى أحاط بهما قائلاً :

- آسف إذا كنت قد سمحت لنفسى بالتدخل فى شئونك .. لكنى كنت مضطرًا إلى ذلك -

قالت وهى مستمرة فى القيادة دون أن تلتفت إليه :

- وما الذى اضطرك لذلك ؟

- إننى لا أحب أن أراك على هذه الصورة ..

- وما الذى يعنيك من أمرى ؟

- إننى مهتم بك ..

- لأننى ابنة أستاذك ورئيسك فى العمل .. أليس كذلك ؟

أكمل (عماد) قائلاً :

- وصاحب الفضل على .. إنه الشخص الوحيد الذى مد لى يد المساعدة هنا ..

- لم أقل لك ؟ هذا هو الشيء الذي يثير اهتمامك بي ..

أطلق زفرة قصيرة قائلاً :

- ماذا تريدين أن أقول لك يا (نورا) ؟

قالت بسخرية تمتزج بالمرارة :

- ماذا أريد أن تقوله لي ؟ لا أظن أنني بحاجة لأن أسمع منك أي شيء ..

- أتحبين أن نذهب إلى مكان ما ؟

- بل أفضل أن نذهب إلى المنزل مباشرة ..

لو أردت أن نذهب إلى مكان ما .. لنتناول فنجانين من القهوة ونتحدث أولاً قبل الذهاب إلى المنزل ؟

قاطعته قائلة :

- لا أظن أن بيننا ما يمكن أن نتحدث بشأنه .. لم تأت لإعادتي إلى المنزل ! هأنذا في طريقي إليه ..

- نعم .. ولكن لم أكن أريد أن يراك والدك .. وأنت على هذه الحالة ..

ابتسمت بسخرية قائلة :

- إنني لست مخمورة يا صديقي .. كما تظن .. اطمئن ، لم أصل لهذه الحالة بعد ..

سألها قائلاً :

- (نورا) لماذا تفعلين هذا بنفسك ؟

أوقفت السيارة فجأة وهي تنظر إليه قائلة :

- أنت السبب !

نظر إليها بدهشة قائلاً :

- أنا ؟ لماذا ؟ ما الذي فعلته ؟

قالت له بعصبية :

- كان يتعين عليك أن تفهم من نفسك ..

قال وقد ازدادت دهشته :

- أفهم .. ماذا ؟

قالت وقد أطلت من عينيها نظرة ألم :

- إننى احبك ..

تراجع برأسه إلى الوراء ، وقد ارتسمت ملامح الحيرة فى وجهه وهو يحدق فيها دون أن يعقب بشىء ..

ثم ما لبث أن قال :

- عندما تحدثنا فى هذا الأمر من قبل ؛ أوضحت لك حقيقة موقفى .. وقد وجدتك متفهمة .. حيث أوضحت أيضًا أن مشاعرك نحوى لم تتخط حاجز الإعجاب .. واتفقنا فى النهاية على أن نكون أصدقاء ..

- وماذا كنت تنتظر منى أن أقوله بعد أن صدمت مشاعرى على هذا النحو ؟

هل كنت أتوسل إليك لتبادلنى هذه المشاعر ؟

- إننى لم أكن أقصد الإساءة إلى مشاعرك .. بل ثقى أننى أقدرها وأحترمها لكن ....

قاطعته بعصبية وهى تكاد أن تبكى قائلة :

- لا تقل شيئًا .. أرجوك لا تقل شيئًا .. فأى شىء ستقوله الآن سيزيد من صعوبة الأمر ..

وعادت لتقود السيارة مرة أخرى فى طريقها إلى المنزل وقد التزم (عماد) بالصمت احترامًا لرغبتها ..

وما لبث أن توقفت أمام المنزل حيث سألها (عماد) قائلاً :

- هل أدخل معك ؟

لكنها اعترضت قائلة :

- أظن أنه من الأفضل أن تعود الآن إلى المركز لتستريح .. فقد تسببت فى تعبك وتعطيلك بأكثر مما يجب ..

- إننى مستعد لعمل أى شىء من أجلك ..

قالت له باستخفاف :

- تقصد من أجل الدكتور (نافع) .. على أية حال إننى سأخبره بأنك قد قمت بمهمتك على أكمل وجه .. وأظن أن هذا سيزيد من تقديره لك ..

حاول أن يتكلم قائلاً :

- (نورا) ..

لكنها قاطعته مرة أخرى قائلة :

- من فضلك يا (عماد) .. أنا أيضًا أريد أن أستريح .. عن إذنك ..

واستدارت متجهة إلى المنزل دون أن تضيف كلمة أخرى - ودون أن تلتفت إليه .. بينما ظل واقفًا فى مكانه لبرهة من الوقت وهو يراقبها .. ومشاعر شتى تتصارع بداخله .. ثم ما لبث أن استدار بدوره عائدًا إلى حجرته بمركز الأبحاث ..

وفى إحدى حجرات المنزل العلوية .. كان الدكتور (نافع) واقفًا وراء النافذة داخل الحجرة المظلمة ، وهو يترقب عودة ابنته بمزيج من مشاعر الغضب والقلق ..

حينما رآها وهى تغادر السيارة بصحبة (عماد) .. وقد لاحظ ما بينهما من اضطراب .. وهم بالتوجه إليها وتعنيفها لتأخرها خارج المنزل حتى هذا الوقت ، وسؤالها عن المكان الذى ذهبت إليه .. لكنه تراجع عن ذلك .. وفضل عدم مواجهتها وهو على هذه الحالة من الانفعال والغضب .. مؤجلاً ذلك إلى الصباح ..

* * *

٣ - المساومة ..

استغرق عماد فى كتابة بحثه ، والنتائج التى توصل إليها من خلال تجاربه المعملية ؛ عندما سمع طرقات على باب حجرته .. فنهض ليفتح الباب حيث وجد أحد الأشخاص من المكلفين بحفظ الأمن فى مركز الأبحاث .. سأله قائلاً :

- آسف .. إذا كنت قد عطلتك عن عملك .. لكنى جئت لأسألك عما إذا كنت تحتاج لشىء يمكن أن أقدمه لك ..

شكره (عماد) قائلاً :

- أشكرك .. إن لدى كل ما يلزمنى هنا ..

قال له حارس الأمن :

- على أية حال .. لو احتجت لأى شىء .. لا تتردد فى إخبارى بذلك .. ويكفى أن تتصل بى عن طريق

الهاتف فى حجرتك .. فقد أوصانى الدكتور (نافع) بالاهتمام بك ..

- أشكرك مرة أخرى .. وتأكد أننى لن أتردد فى ذلك ..

وعاد (عماد) لمواصلة بحثه وهو يشعر بمزيد من الامتنان للدكتور (نافع) الذى يوليه كل هذا الاهتمام ..

لكنه عاد ليسمع طرقات على باب حجرته مرة أخرى بعد نصف ساعة فقط من مواصلة البحث ..

فنهض من جديد ليفتح الباب وهو يشعر بضيق لهذه المقاطعة .. وقد توقع أن يكن هو حارس الأمن مرة أخرى .. وقال لنفسه وهو يدير أكرة الباب :

- هذا ليس عرضًا بالمساعدة .. بل هو تطفل زائد عن الحد ..

لكنه فوجئ بالدكتور (نافع) واقفًا أمامه ..

فنظر إليه بدهشة قائلاً :

- دكتور (نافع) !

- هل تسمح لى بالدخول ؟

- آه .. طبعًا .. تفضل يا دكتور ..

فك الدكتور (نافع) أزرار معطفه وهو يتطلع إلى الأوراق التى يزدحم بها المكتب .. وتناول منه (عماد) المعطف ليعلقه على المشجب حيث تحدث إليه الدكتور (نافع) قائلاً :

- هل عطلتك عن بحثك ؟

أجابه (عماد) وهو يدعوه إلى الجلوس ..

- على الإطلاق يا دكتور .. ماذا تشرب ؟

- لا شىء .. اجلس يا (عماد) ..

جلس (عماد) وهو مستغرب لهذه الزيارة الليلية المفاجئة التى لم يعتدها من أستاذه ..

بينما استطرد الدكتور (نافع) قائلاً :

- لقد قطعت شوطًا طويلاً فى هذا البحث .. ولو استمر بك الحال على هذا النحو فإننى أتوقع أن تنتهى من الدكتوراه خلال سنة أو اثنتين على الأكثر ..

- الفضل فى ذلك يرجع لمساعدتك وتوجيهاتك لى ..

- كلا .. لا تبخس من قدر نفسك .. أنت شخص مميز يا (عماد) .. وقد كانت نظرتى صائبة بشأنك .. فأنت تتميز بالذكاء والنبوغ .. فضلا عن أن لديك الإرادة والعزيمة القوية للوصول إلى ما تهدف إليه .. وأنا واثق أنك ستكون عالمًا كبيرًا ..

أحس (عماد) بالفخر وهو يرى هذا التقدير من أستاذه .. وقال :

- أشكرك يا دكتور ..

- لعلك مندهش من زيارتى الليلية المفاجئة هذه لك ..

- يشرفنى حضورك فى أى وقت يا دكتور .. ولاتنس أن هذه حجرتك وأنا هنا ضيف بها ..

ـ لقد وجدت نفسى بحاجة للتحدث إليك .. فركبت سيارتى وجئت إلى هنا ..

ـ أنا تحت أمرك يا دكتور ..

ـ إنه بشأن ابنتى .. أنت تعرف مدى ثقتى بك .. وأننى أعتبرك ابنًا لى .. لذا فلا أستطيع أن أتحدث عن أى شىء يخصها .. أو يقلقنى بشأنها سواك ..

ـ هل عادت إلى ما كانت عليه من قبل ؟

ـ فى الحقيقة منذ أن أعدتها إلى المنزل فى تلك الليلة فى الأسبوع الماضى ، توقفت عن السهر بالخارج .. والذهاب إلى الملاهى والديسكوهات .. كما أن صلتها بتلك المجموعة التى كانت تزاملها تكاد أن تكون مقطوعة تقريبًا ..

ـ حسن .. هذه أنباء طيبة .. فما هى المشكلة إذن ؟

قال الدكتور (نافع) وفى عينيه نظرة تنم عن القلق :

ـ لقد حدث لها تحول عكسى تمامًا ..

ـ ماذا تقصد بذلك ؟

ـ أصبحت شديدة الانطوائية .. وتميل إلى العزلة .. واختفت مظاهر المرح والحيوية التى كانت تبدو عليها دائمًا ..

ـ وما هو السر وراء ذلك ؟

قال الدكتور (نافع) وهو ينظر إليه :

ـ الإجابة لديك أنت يا (عماد) ..

نظر إليه (عماد) بدهشة قائلاً :

ـ أنا ؟

ـ نعم .. لأن كل هذه التقلبات الحادة بسبب حبها لك ..

قال (عماد) متلعثمًا :

ـ ولكن .. يا دكتور .. أنا ..

ـ لا داعى لإخفاء الأمر .. فقد صارحتنى (نورا) بالحقيقة ـ إنها تحبك .. وقد حاولت الهرب من هذا الحب فى البداية .. بالسهر والرقص ومخالطة أصحاب السوء .. لكنها لم تفلح فى ذلك .. كانت تظن أنها تعاقب

نفسها على هذا الحب الذى لم تجد له مقابلاً لديك ..
والآن تعاقب نفسها بطريقة أخرى ..

ـ دكتور (نافع) .. صدقنى .. إننى لم أشجعها على ذلك .. لقد حاولت أن أوضح لها الأمر .. لكنها ..

قاطعه الدكتور (نافع) قائلاً :

ـ أعرف ذلك يا بنى ، أعرف أنه ليس لك ذنب فى هذا .. وأنك لم تشجعها على التمادى فى هذه العاطفة .. ولكن .. ولكن .. هذا لم يغير فى الأمر شيئًا .. فهى ما زالت تحبك ..

ومن الغريب أننى لم أعرف عن ابنتى أنها فتاة عاطفية من قبل .. بل كنت أشعر أحيانًا بأنها تستخف بهذا النوع من المشاعر .. لكنها تبدو مختلفة بالنسبة لى كثيرًا فى الفترة الأخيرة .. إننى لم أرها على هذه الحالة من قبل .. ولم أعهد فيها مثل هذه التقلبات العنيفة ..

قال (عماد) وقد أحس بما يعتريه من قلق بشأن ابنته :

ـ لو بإمكانى المساعدة بشىء .. فتأكد أننى لن أتوانى عن فعله ..

ـ بإمكانك أن تنتشلها مما هى فيه ..

ـ كيف ؟

صمت الدكتور (نافع) برهة قبل أن ينهض من مكانه ليجلس على المكتب ويتظاهر بالنظر إلى أوراق البحث الخاص (بعماد) .. وقال :

ـ هل تعرف المثل الذى يقولونه فى مصر .. اخطب لابنتك ولا تخطب لابنك ؟

صمت (عماد) وهو ينظر إليه دون أن يعلق بشىء ..

بينما استطرد الدكتور (نافع) قائلاً :

ـ إننى أريدك زوجًا لابنتى ..

نظر إليه (عماد) بدهشة وقد أحس بالحرج وقال :

- إن ذلك شئ يشرفنى بالطبع .. لكن .. أنت تعرف أننى مرتبط يا دكتور ..

قال وهو ينظر إليه مباشرة :

- نعم .. أعرف ذلك .. لكنها مجرد خطبة .. أليس كذلك ؟

- بلى .. لكننا متحابان .. وسوف نتزوج بعد حصولى على الدكتوراه ..

- إن ما أعجبنى فيك هو أنك تتصرف وتفكر بطريقة عملية وواقعية .. وربما كان هذا هو سر نجاحك .. فشخص مثلك لا يسمح للعواطف أن تعترض طريقه أو تحول دون دفعه للنجاح .. والنجاح المستمر .. لذا فربما كان للعاطفة مكان فى حياتك .. لكنها تحتل دائمًا المرتبة الثانية .. بينما طموحك الزائد له المكانة الأولى .. هل أنا مخطئ فيما قلته ؟

- دكتور (نافع) .. أنا لا أفهم ..

قاطعه الدكتور (نافع) قائلاً :

- لا بد أن تفهم أن تلك الفتاة الريفية البسيطة لا تناسبك .. وليست هى بالزوجة التى تصلح لعالم كبير ينتظره مستقبل باهر مثلك .. لذا يتعين عليك أن تنحى العواطف جانبًا .. وأن تفكر بطريقة أكثر واقعية وعملية ..

حدق (عماد) فى أستاذه وقد استوقفه ما قاله عن منصب العالم الكبير ، والمستقبل الباهر الذى ينتظره .. فهذه الكلمات هى التى تداعب أحلامه وخياله ..

بينما استطرد الدكتور (نافع) قائلاً :

- إننى أستطيع أن أختصر لك الطريق .. وأن أجعلك تحصل على الدكتوراه خلال شهر أو اثنين بدلاً من سنة أو سنتين .. سأقدم لك كل مساعدة ممكنة .. وأعرفك بأكبر العلماء هنا .. وأصحبك إلى الجهات العلمية المرموقة .. إننى لن أكتفى بمساعدتك فى الحصول

على الدكتوراه فقط .. بل سأجعلك تحتل منصبًا مرموقًا في هذا المركز .. وسأجعلك تحصل على الجنسية الأمريكية بسهولة .. إنني أستطيع أن أختصر لك الكثير من الوقت والأحلام .. لو أردت ..

ولم يعد هناك مجال للشك .. إن الدكتور (نافع) يساومه على الزواج من ابنته مقابل مساعدته لتحقيق الكثير من طموحاته ..

وأحس (عماد) بالارتباك ، فالعرض مغرٍ ومحرج وغير متوقع في آن واحد .. وقال له متلعثمًا :

ـ في الحقيقة يا دكتور .. أنا لا أدري ماذا أقول ؟

اقترب منه الدكتور (نافع) قائلاً :

ـ فكر فيما قلته لك يا (عماد) .. إن كلينا بحاجة إلى الآخر .. أنت بحاجة لتحقيق طموحاتك .. وأنا بحاجة للاطمئنان على ابنتي ..

وبصراحة أنا لا أستطيع الاطمئنان على ابنتي إلا وهي زوجة لشخص مثلك .. شاب مصري .. ذي أخلاق قويمة .. وينتظره مستقبل باهر ، وفضلاً عن ذلك فإن ابنتي تحبه .. إن هذه هي الحماية التي أريدها لابنتي وسط هذا المجتمع الذي أحمل جنسيته فقط ، دون أن أستطيع تقبل سلوكياته وتقاليده .. والتي تتعارض مع كل التقاليد والقيم التي تربيت عليها ..

ـ ولكن .. ما ذنب هذه الفتاة التي أحبتني وتترقب عودتي إليها وزواجي منها ؟

ـ إنها ستجد بلا شك الشخص الذي يناسبها .. وستنساك مع مرور السنين .. كما ستنساها أنت أيضًا ..

ووضع يده على كتف (عماد) وهو يستطرد قائلاً :

ـ ربما أبدو بالنسبة لك الآن شخصًا مختلفًا عن ذلك الذي عرفته .. وربما غيرت فكرتك عني .. واحترامك لي ..

لكن الذى يحدثك الآن ليس هو الدكتور (نافع) العالم المرموق ذا الصيت الذائع فى الأوساط العلمية المعروفة .. والذى يتمتع بمكانة دولية مرموقة، لكنه (نافع) الأب - والذى يحب ابنته أكثر من أى شىء آخر .. إنها ابنتى الوحيدة .. والكائن الإنسانى الوحيد الذى أهتم به أكثر مما سواه فى هذا العالم .. لذا فإننى مستعد لن أفعل الكثير من أجلها .. حتى لو كان ذلك متعارضًا مع بعض المبادئ التى أحملها ..

وما لبث أن نهض واقفًا مرة أخرى وهو يتجه نحو الباب .. حيث عاد ليربت على كتف (عماد) قبل أن ينصرف قائلاً :

- فكر فيما قلته يا (عماد) .. وأنا واثق أنك لن تختار إلا ما فيه صالحك .. إننى لن أتحدث فى هذا الأمر مرة أخرى .. لكنى سأنتظر أن تحدد لى موقفك قريبًا بشأن ما قلته ..

* * *

٤- الاختيار الصعب ..

لم يستطع (عماد) النوم طوال الليل .. فقد ظل يفكر فيما قاله (نافع) وهو فى حيرة من أمره ..

أيضحى بحبه لـ (ميرفت) ووعده لها بالزواج ؟ لم يضحى بطموحاته وبالمستقبل الباهر الذى ينتظره ؟

لكنه ليس مضطرًا إلى التضحية بـ (ميرفت) .. فقد وضع قدامه على الطريق الصحيح والمستقبل ما زال مفتوحًا أمامه - إنه يستطيع أن يحقق طموحاته .. بجهده وذكائه ونبوغه دون حاجة للاعتماد على الدكتور (نافع) .. ودون أن يضطر للتخلى عن (ميرفت) ..

واعتدل جالسًا على حافة الفراش قائلاً لنفسه :

- لكنه سيختصر لى الكثير من الوقت والجهد ويدفعنى إلى النجاح الذى أنشده من أقصر الطرق ..

ونهض وهو مستمر فى حواره مع نفسه قائلاً :

- ثم من قال إننى لست بحاجة إليه وأنا فى هذه الظروف الراهنة .. إنه يقدم لى المسكن .. والوظيفة التى أحتاج إليها للإنفاق على نفسى .. ويقدم لى المساعدة العلمية المطلوبة للحصول على الدكتوراه .. إننى تحت رعايته الكاملة تقريبًا .. ولا أدرى .. ماذا سيفعل معى لو رفضت عرضه ؟ هل سينتزع منى كل ذلك ؟

أخذ يدور فى حجرته وهو يستطرد قائلاً :

- بل ربما فعل ما هو أكثر من ذلك .. فالأمر لم يكن مجرد عرض يحتاج للتفكير فقط .. بل كان يحمل فى طياته شيئًا من الوعيد .. إنه يستطيع أن يحرمنى من كل ما حصلت عليه حتى الآن .. بل ربما حاربنى فى مستقبلى هنا ..

وهز رأسه وكأنه يحاول أن ينفى هذا الاحتمال قائلاً :

- لا .. لا يمكن أن يكون الدكتور (نافع) على هذه الصورة .. إنه ليس بالرجل الذى يفعل شيئًا كهذا ..

لكن ما لبث أن تردد فى أفكاره قائلاً :

- ولم لا ؟ إن الرجل مجنون بحبه لابنته .. وقد قال بنفسه .. إنه مستعد أن يفعل أى شىء لأجلها .. حتى لو تعارض ذلك مع مبادئه ..

وعاد ليلقى بنفسه على الفراش وما زالت الأفكار تطارده قائلاً لنفسه :

- ماذا أفعل ؟ هل أوافق على العرض الذى قدمه لى؟

وحاور نفسه قائلاً :

- ولم لا ؟ لماذا لا تفكر بطريقة عملية كما اعتدت أن تفعل ؟ إن هذا الزواج الذى عرضه عليك الدكتور (نافع) يحلم به أى شاب مثلك .. بل إنه يفوق الحلم ..

فهو سيقترن بابنة عالم مشهور له مكانته .. وسيفتح له هذا أبوابًا كثيرة فى طريق المجد الذى ينتظره .. ثم إن الفتاة جميلة .. وساحرة إلى حد لا يقاوم .. وهو نفسه يعترف بذلك .. إذن فلم التردد ؟ وما الذى يريده أكثر من ذلك ؟

أغمض عينيه قائلاً :

- لكنى أحب (ميرفت) ..

واستمر فى حواره مع نفسه قائلاً :

- ليس أكثر من حبك لنفسك ومستقبلك ..

- إنها لا تستحق ذلك .. فهى أيضًا تحبنى .. وقد تحملت من أجلى الكثير ..

- لن تنتظر طويلاً .. فلابد أنها ستجد الشخص المناسب يومًا ما كما قال الدكتور (نافع) ..

ثم .. ثم إنها بالفعل لن تكون الفتاة المناسبة للمستقبل الذى رسمته لنفسى ..

وعاد ليعتدل جالسًا فوق حافة الفراش وهو يستند برأسه على راحتيه ، وكأنه يعتصرها بين يديه قائلاً لنفسه :

- لابد أن أتوقف عن التردد .. يجب أن أحسم هذا الأمر مع نفسى - يجب ألا أدع شيئًا يعترض طريق مستقبلى ..

* * *

كان حفل العرس أسطوريًا .. وقد حرص الأب على تقديم ليلة عرس رائعة لابنته ، دون أن يبخل فى الإنفاق على ذلك ..

وكانت القاعة التى شهدت حفل الزفاف مزدحمة بالعديد من الشخصيات المصرية والأمريكية المعروفة التى جاءت لمجاملة الدكتور (نافع) ..

بينما بدت العروس شديدة الولع بعريسها وهى تتأبط ذراعه لتغادر القاعة فى طريقها إلى الجناح الفاخر الذى حجزه لها أبوها فى أرقى فنادق الولاية .. وسط مظاهر الفرح والبهجة البالغين ..

أما العريس فقد كانت تنتابه مشاعر شتى فى هذه اللحظات ـ فقد تصارعته أحاسيس متناقضة من الحزن والسعادة فى آن واحد .. لقد خان حبه لـ (ميرفت) .. وضحى به من أجل مصلحته ومستقبله .. اختار أن يتخلى عنها .. لكنه لم يستطع أن يتغلب على حبه لها .. برغم خيانته لهذا الحب .. فما زالت (ميرفت) هى الفتاة الوحيدة التى استطاعت أن تحرك أحاسيسه وتمتلك مكانًا فى قلبه .. لم يتملكه أحد سواها ..

ذلك القلب الذى ضحى به هو الآخر من أجل المستقبل الذى رسمه لنفسه .. ترى .. ماذا ستقول عنه الآن .. لو علمت بزواجه من (نورا) ؟ وكيف سيكون وقع الصدمة عليها ؟ بل كيف سيمكنه أن يخبرها بالأمر أو يواجهها يومًا ما ؟

مسكينة يا (ميرفت) ! إنك لا تستحقين ذلك .. لكن التيار كان أقوى منى .. وتلفت حوله وهو ينظر إلى عروسه الجميلة .. ومظاهر الثراء المحيطة به .. وكل هذه الشخصيات التى حضرت حفل الزفاف .. والتى لم يكن يحلم بمقابلتها من قبل .. ثم ذلك العالم الكبير الذى أصبح حماه .. وما يمكن أن يوفره له فى المستقبل ليكون عالمًا كبيرًا مثله .. وقال لنفسه ..

ـ كيف كان يمكننى مقاومة كل ذلك ؟

* * *

تناول يديها بين أنامله بعد أن أصبحا بمفردهما فى جناحهما بالفندق .. قائلاً :

ـ هل تشعرين بالسعادة ؟

ابتسمت له قائلة :

ـ إن سعادتى لا توصف .. لقد كان زفافنا رائعًا ..

ابتسم لها قائلاً :

ـ والعروس فاتنة ..

سألته قائلة :

ـ وماذا عنك ؟ هل تشعر بالسعادة ؟

ـ كيف يمكننى ألا أكون سعيداً وقد تزوجت من فورى من فتاة فاتنة مثلك ؟

تطلعت إليه قائلة :

ـ حقًا يا (عماد) ؟

ـ هل ترتابين فى ذلك ؟

ـ فى الحقيقة .. نعم ..

ـ كيف تقولين هذا ؟ وما الذى يدعوك إلى الارتياب فى سعادتى بالزواج منك ؟

ـ عيناك !

نظر (عماد) إليها بدهشة قائلاً :

ـ عيناى ؟!

ـ نعم .. عيناك كانتا تبدوان حائرتين وشاردتين أحيانًا وسط كل البهجة التى تحيط بنا ..

ابتسم لها قائلاً :

ـ هذا وضع طبيعى .. فأنا لم أتزوج من قبل .. والحفل الذى أقيم لنا هذه الليلة كان يحتوى على كل ما يدعو إلى الحيرة والانبهار ..

ـ هل هذا هو السبب فقط ؟

قال (عماد) وهو يلف ساعده حول كتفيها :

ـ لا أظن أن هذا هو الوقت المناسب للتساؤلات ..

لكنها لم تتراجع عن تساؤلاتها قائلة :

ـ (عماد) .. هل تحبنى حقًا ؟

ـ ولم تزوجتك إذن ؟

ـ ربما .. لأننى ابنة أستاذك .. والشخص الذى تدين له بالفضل ..

ـ أتظنين أن هذا السبب وحده يكفى للزواج ؟

ـ أنا التى أسألك ..

ـ (نورا) .. إنك تبدين غريبة هذه الليلة .. تسألينتى بعد ساعات قليلة من زواجى بك إذا كنت أحبك أم لا ..

ـ لماذا تتهرب من الإجابة ؟

قال وهو يبتسم ابتسامة تنم عن الدهشة :

ـ أنا لا أتهرب من شىء .. إننى أحبك بالفعل .. ولهذا تزوجتك ..

ـ وخطيبتك السابقة ؟

قال وقد بدأ يشعر بالضيق :

ـ أظن أنه من الأفضل أن نبدل ثيابنا .. وأن نبدأ فى تناول العشاء بدلاً من هذا الحديث ..

ـ ليس قبل أن أسمع إجابتك ..

ـ إجابتى عن ماذا ؟ (نورا) .. أنت الآن زوجتى .. ولا مجال للحديث الآن فى أمر انتهى ..

قالت وفى صوتها نبرة تنم عن الشك :

ـ هل انتهى حقًا ؟

ـ بالطبع ..

ـ هذا أمر يدعو للاستغراب ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأنك منذ فترة غير بعيدة كنت تحدثنى عن إخلاصك للارتباط الذى جمع بينكما وعن تمسكك بحبك لها .. وكنت ترفض حبى لك .. وفجأة انقلب الحال ..

ـ لست أول شخص حدث له هذا .. كثيرون قبلى كان لهم ارتباطات سابقة .. وعاشوا قصص حب مختلفة .. ثم اختلف الأمر بالنسبة لهم فيما بعد ..

وتزوجوا من فتيات أخريات غير تلك اللاتى ارتبطوا معهن من قبل ..

- والبعض لم يستطع أن ينسى حبه القديم ..

- إنك تفترضين شيئًا لم يحدث بعد ..

- الحيرة التى رأيتها فى عينيك كانت تنبئنى بذلك ..

- وهذا أيضًا كان افتراضًا خاطئًا .. فقد أوضحت لك الأمر .. (نورا) - إننى أحبك .. وتأكدى أنى سأكون زوجًا محبًا ومخلصًا لك .. فلم يعد فى حياتى الآن إنسانة أخرى سواك ..

وكان مخلصًا فيما قاله فى هذه اللحظة .. فقد حسم الأمر بالنسبة له .. لقد تزوج من هذه الفتاة .. وعليه أن يلقى بالماضى الآن وراء ظهره حتى تستقر حياته .. ولا يعيش فى بلبلة ما بين مشاعره السابقة ،

وواقعه الحالى .. إنه بحاجة للاستقرار .. والحياة الزوجية الهادئة الرصينة .. حتى يستطيع أن يركز على عمله ودراسته ويحقق النجاح الذى ينشده ..

لفت يديها حول عنقه وهى تهمس له قائلة :

(عماد) .. أنا أحبك .. أحبك بجنون ..

بينما لف يده حول خصرها قائلاً :

- وأنا أيضًا أحبك - وأريد أن تتأكدى من ذلك ..

* * *

٥ ـ فى انتظار الرد ..

اشتد المرض على والدة (ميرفت) .. وقد بدا صوتها واهنًا وهى تنادى ابنتها لتساعدها على مغادرة الفراش ونقلها إلى المقعد المتحرك ..

وما لبثت أن حضرت إليها (ميرفت) وهى تحمل فى يدها زجاجة دواء ..

سألتها الأم قائلة :

ـ أين كنت يا بنيتى ؟ لقد بح صوتى من مناداتك ..

قالت (ميرفت) وهى تندفع نحو أمها :

ـ آسفة يا أمى .. كنت أحضر لك الدواء .. هل تريدين مغادرة الفراش ؟

قالت الأم وهى تلهث :

ـ نعم .. أريد أن أخرج إلى الشرفة ..

ـ لكن الدكتور .. حذر ..

قاطعتها الأم قائلة :

ـ أرجوك يا بنيتى .. دعك الآن مما قاله الطبيب .. لقد مللت الرقاد فى السرير ..

ـ حسن يا أمى .. ولكن خذى الدواء أولاً ..

تناولت الأم ملعقة الدواء من يد ابنتها .. وسألتها :

ـ كم دفعت ثمنًا له ؟

ابتسمت (ميرفت) وهى تساعدها على الانتقال إلى المقعد المتحرك قائلة :

ـ لا تشغلى نفسك بهذا الأمر ..

قالت الأم بعد أن بذلت الجهد للانتقال إلى المقعد ، وقد تصبب العرق من وجهها :

ـ كيف لا أشغل نفسى بذلك وأنا أعرف ظروفنا جيدًا ؟

سارعت ميرفت بلف بطانية صوفية حول جسد الأم ، وهى تقودها إلى خارج الحجرة قائلة :

ـ المهم عندى هو صحتك .. وأى شىء آخر يمكن التغلب عليه ..

ـ المهم أنت يا (ميرفت) .. أريد أن أطمئن عليك يا بنيتى قبل أن أموت ..

ـ أطال الله فى عمرك يا أمى .. إننى على خير ما يرام .. ولا يوجد ما يدعوك للقلق بشأنى ..

نظرت إليها الأم بحزن قائلة :

ـ كلا يا (ميرفت) .. إنك لن تستطيعى إخفاء الحقيقة على أمك .. فأنت كالوردة التى تذبل يومًا بعد يوم ، دون أن تسمح لأحد بأن يساعدها على التفتح مرة أخرى ..

ابتسمت (ميرفت) برغم ملامح الإرهاق التى تبدو على وجهها قائلة :

ـ أنت تبالغين فى مخاوفك على .. فوردتك مازالت كما هى لم تذبل بعد ..

سألتها الأم قائلة :

ـ ألم تصلك منه رسالة بعد ؟

لم تستطع (ميرفت) أن تقاوم مسحة الحزن التى ارتسمت على وجهها .. فأدارت وجهها حتى لاتراها أمها قائلة :

ـ نعم ..

ـ ولماذا تنتظرين يا بنيتى ؟ لقد أرسلت إليه أربع رسائل على مدار العام دون أن تتلقى أى رد على رسائلك ..

ـ ربما كانت ظروفه لا تسمح بسبب دراسته وعمله و ....

قاطعتها أمها قائلة :

ـ لا تحاولى البحث عن أعذار ومبررات .. أنت نفسك غير مقتنعة بها .. إن عدم رده على رسائلك هو فى حد ذاته رد واضح ..

التفتت (ميرفت) إليها قائلة :

ـ ماذا تقصدين يا أمى ؟

ـ قصدى واضح يا بنيتى .. إنه يريد أن يجعلك تفهمين من تلقاء نفسك أن ما بينكما قد انتهى .. وأنه انشغل بحياته ومستقبله فى تلك الدولة التى ذهب إليها عن أى شىء آخر .. وعن اى ارتباط يربطه بك ..

ـ لا يا أمى .. لا تقولى هذا ..

ـ إذا كنت تريدين أن تخدعى نفسك يا (ميرفت) .. فأنا لن أسمح لنفسى أن أخدعك ..

ـ ربما لم تصل خطاباتى إليه .. ربما يكون العنوان قد تغير .. وانتقل إلى مسكن آخر ..

ـ حتى لو كان ما تقولينه صحيحًا .. فلماذا لم يرسل لك أى خطاب طوال العام الماضى .. ومنذ أن أرسل إليك خطابه الأخير ؟ ولو كان عنوانه قد تغير فلماذا لم يحاول أن يخطرك بذلك ؟ إن عنوان منزلنا ما زال كما هو لم يتغير .. لم تودين أن تقولى إنه قد نسيه ؟!

لا داعى لالتماس الأعذار الواهية له .. والتعلق بآمال غير حقيقية .. فمن الواضح أنه قد حل نفسه من ارتباطه بك ..

قالت وهى ترفض أن تصدق :

ـ لا يا أمى ! ليس (عماد) هو الذى يفعل ذلك .. إن الحب الذى بيننا أقوى مما تتصورين .. ولا يمكن أن يهون عليه بهذه السهولة ..

ـ بل (عماد) هو الذى يستطيع أن يفعل ذلك .. فقد كان رأى جده فيه صحيحًا .. إنه أنانى .. وهو مستعد للتضحية بأى شىء إذا ما تعارض مع مصلحته .. أنت فقط لا تريدين أن تريه على حقيقته .. أبعدى الغشاوة عن عينيك يا (ميرفت) .. التفتى لحياتك ومستقبلك .. وتخلصى من هذه العاطفة الوهمية .. فالسنون تجرى يا بنيتى .. وأريد أن أراك فى كنف رجل قبل أن أرحل عن الدنيا ..

ـ إننى لن أتزوج من أحد غير (عماد) يا أمى ..

- هل تريدين أن تظلى بلا زواج من أجل شخص لا يستحق ؟

- لا يا أمى .. لا تقولى هذا عن (عماد) ..

- لا تزيدى أنت من حزنى وقلقى عليك .. فأنا لا أريد أن أتركك فى هذه الدنيا وحيدة - أنت تعرفين أنه لا أحد لك فى هذه البلدة سواى بعد وفاة أبيك وابتعاد الأقارب .. فكيف ستواجهين الحياة وأنت مجرد فتاة ضعيفة بلا وظيفة ولا رجل يحميها .. ستكونين مطمعا للجميع يا بنيتى ..

- أهل البلدة كلهم أهلى ..

- أنت لا تدرين ما هى نفوس البشر يا بنيتى .. ثم إنك الآن فى عز شبابك .. وعروض الزواج تنهال عليك من أشخاص ملائمين .. لكن الحال لن يستمر بك على هذا النحو بعد أن تتقدم بك السنون ويرحل عنك الشباب ..

إن الحاج (عبد الوهاب) قد حدثنى منذ يومين عن رغبته فى تزويجك لابنه ، وأنت طبعًا تعرفين أن له ابنًا هو مهندس زراعى .. والكل يشيد به .. كما أن عائلة الحاج (عبد الوهاب) من العائلات المعروفة فى البلدة .. وزيجة كهذه تتمناها أى فتاة فى البلدة .. خاصة وأنه مستعد لتحمل تكاليف الزواج ..

قالت (ميرفت) بإصرار :

- لا يا أمى .. لن أتزوج من ابن الحاج (عبد الوهاب) أو غيره .. على الأقل لأننى لا أستطيع أن أتخلى عنك وأنت فى مرضك ..

- لا تتحججى بى .. فأنا أستطيع تدبير أمرى .. والكل هنا مستعد لخدمتى .. فقط وفقى أنت ولا تشغلى نفسك بأى شىء آخر ..

- كيف أترك الغير يخدمك فى مرضك وأنا على قيد الحياة ؟

- ومن قال إنك ستبتعدين عنى .. إنك ستكونين معى هنا فى نفس البلدة .. ويمكنك أن تأتى كل يوم لتريني لو أردت ولو كانت هذه هى حجتك ..

- قلت لك لا أستطيع أن أوافق يا أمى .. لا أستطيع ..

- لأنك ما زلت تأملين فى عودته .. وزواجه منك .. أليس كذلك ؟

- سأكتب له خطابًا آخر ..

- إنك تسيئين إلى كرامتك يا بنيتى .. فلو أراد أن يرد على خطاباتك لفعل من قبل ..

قالت (ميرفت) بحزن :

- سيكون هذا هو خطابى الأخير ..

- وإذا لم يرد ..

قالت (ميرفت) مستسلمة :

- سأنفذ ما تريدينه يا أمى ..

* * *

وقف (عماد) يتلقى التهانى فى إحدى قاعات الحفلات .. بمناسبة أحد الاكتشافات الجديدة التى توصل إليها من خلال أبحاثه ، التى بدأت تجد صدى فى الأوساط العلمية عن (الجيولوجيا الكونية) ..

وكان الدكتور (نافع) قد أقام هذا الحفل خصيصًا من أجله احتفالاً بهذه المناسبة .. ودعا إليه كبار الشخصيات المعروفة فى الولاية .. ونخبة من العلماء والأساتذة والصحفيين ..

خاصة أن اسم (عماد) بدأ يظهر فى المجلات المتخصصة وغيرها .. بعد أن بدأ يثير الاهتمام بأبحاثه المتميزة فى فترة زمنية قصيرة للغاية .. بالقياس إلى غيره من العلماء والمتخصصين ..

وفى الحقيقة كان لحميه دور كبير فى هذه الطفرة التى وصل إليها (عماد) .. فقد أوفى بوعده له بعد زواجه من ابنته .. وزاد من رعايته واهتمامه به .. وأخذ يغدق عليه من خلاصة خبراته ومن ثروته أيضًا ..

كما أخذ يدفع به إلى الاختلاط بكبار العلماء والأساتذة .. ويقدمه إلى الأوساط العلمية بنفسه بعد حصوله على الدكتوراه .. وتوليه منصبًا متميزًا فى مركز الأبحاث الفضائية .. وقد أحس بأن الدكتور (عماد) هو امتداد له فى هذا المكان .. كما أن العائد من هذا النجاح يعود بلا شك على ابنته .. التى لم تعد ابنة عالم جيولجى شهير وناجح فقط .. بل زوجة عالم جيولجى وناجح أيضًا ..

تأبط الدكتور (نافع) ذراع زوج ابنته وهو يقدمه لبعض العلماء والأساتذة .. وقد وقف ليتولى نيابة عنه شرح مزايا الاكتشاف الجديد الذى توصل إليه (عماد) ..

وبدأ بعضهم يناقشه فى اكتشافه وقد أبدوا اهتمامًا كبيرًا به .. بينما أحس (عماد) ببعض التعب والإرهاق .. وقد تذكر أنه لم يذق طعم النوم منذ ليلتين إلا ساعات

قليلة للغاية .. كان يغلبه خلالها النعاس وهو مستغرق فى عمله بمعمله الخاص فى مركز الأبحاث ..

وبدت آثار هذا التعب تبدو واضحة على وجهه .. مما أثار انتباه الدكتور (نافع) ، الذى استأذن مجموعة الأشخاص الذين يحدثهم وهو يجذبه من ذراعه لينتحى به جانبًا .. قائلاً له :

ـ (عماد) .. ماذا بك ؟

قال (عماد) وهو يرسم ابتسامة متعبة على وجهه ، يحاول أن يخفى بها مشاعر الإجهاد التى يحسها :

ـ أنا .. لا شىء يا دكتور ..

قال الدكتور (نافع) وهو يتأمله :

ـ كيف ؟ إن وجهك يبدو مرهقًا للغاية .. كما أن عينيك نصف مغلقتين تقريبًا .. كما لو كنت لم تحظ بالنوم منذ فترة طويلة ..

ـ أنا لم أنم جيدًا بالفعل الليلتين الماضيتين ..

قال الدكتور (نافع) وهو يشعر بالإشفاق عليه :

ـ أعرف ذلك .. إننى أقدر تعبك ومجهودك خلال الفترة الماضية بسبب البحث الذى كنت تجريه .. لقد لاحظت ذلك بنفسى ..

ـ لا أخفى عليك يا دكتور .. أشعر بأننى أكاد أن أسقط على الأرض من شده الإعياء ..

ـ إذن يتعين عليك أن تعود الآن مع زوجتك إلى المنزل فورًا لتحصل على حمام دافئ .. ثم تدس نفسك تحت الفراش لتحظى بقسط وافر من النوم تعوض به تعب الأيام الماضية .. ولا داعى للحضور للمركز غدًا ، فأنا أريد منك أن تنام ملء جفنيك ..

ـ ولكن .. كيف أغادر الحفل هكذا فجأة .. وقد أقيم خصيصًا من أجلى ؟

ـ لا تحمل همًا لهذا الأمر .. سأتولى أنا الاعتذار نيابة عنك ..

ـ ولكن ..

قاطعه الدكتور (نافع) قائلاً بحسم :

ـ لا تجادلنى .. أنا الذى أقمت هذا الحفل بمناسبة اكتشافك الجديد ، وقد حضر كل المدعوين الذين أردتهم أن يصدقوا على هذا النجاح ، وانتهى الأمر .. أما ما عدا ذلك فلا شأن لك به .. المهم عندى أن الحفل قد أدى الغرض منه علميًا وعمليًا وإعلاميًا .. وكل ما عليك هو أن تنسحب أنت وزوجتك من القاعة بهدوء ، ودون جذب الأنظار لتعودا إلى المنزل وتستريحا .. فلا تنس أن زوجتك حامل أيضًا ..

ـ أمرك يا دكتور .. وأشكرك على كل شىء .. على الحفل .. وعلى اهتمامك بى ..

ـ هيا .. هيا .. لا تضع الوقت ..

اقترب (عماد) من زوجته التى كانت واقفة مع مجموعة من السيدات اللاتى حضرن الحفل .. تتحدث إليهن بسعادة ومرح ..

اعتذر لهم وهو يمسك بمرفقها لينتحى بهـا جانبًا وقد همس لها قائلاً :

ـ (نورا) .. إننـى متعب للغايـة وأريد أن أعود إلى المنزل لأحظى ببضع ساعات من النوم ..

نظرت إليه (نورا) بدهشة قائلة :

ـ هل تريد أن ننصـرف الآن ؟ إن الحفل لم يبدأ بعد .. وكل هؤلاء قد حضروا من أجلك ..

ـ أعرف ذلك .. لكنى متعب للغاية كما قلت لك .. ولا أستطيع أن أواصل البقاء معهم وأنا على هذه الحالة ..

ـ لكن انصرافك الآن قد يثير غضب أبى ..

ـ أبوك بنفسه هو الذى طلب منـى أن نعود إلـى المنزل لنستريح ..

ـ حسن .. يمكنك أن تعود أنت .. فأنا لست متعبة ..

ـ كيف ؟ هل سأعود إلى المنزل بمفردى ؟

قالت بلا مبالاة :

ـ ولم لا ؟ هل أنت متعب لدرجة أنك لن تستطيع قيادة السيارة ؟

ـ كلا .. ولكن من الواجب عليك أن تعـودى معى إلى المنزل ..

قالت بنفس النبرة الباردة :

ـ وما الذى يوجب علىّ ذلك ؟

قال وقد بدأت ردودها تثير ضيقه وانفعاله كعادتها معه فى الآونة الأخيرة :

ـ لأنك زوجتى .. ولأنك حامل .. ويجب أن تستريحى أيضًا ..

قالت له محذرة :

ـ اخفض صوتك .. ولا تنس أننـا فـى مكـان عـام والأنظار تتجه إلينا .. إننى أريد أن أبقى فى هذا الحفل على الأقل لكى أنوب عنك فى غيابك ، ولا تشغل نفسك بالحمل .. فهذا شأنى أنا ..

قال لها محتدًا :

ـ كيف ؟ هل هو شأنك وحدك ؟

ـ بالطبع .. فأنا التى أحمل الطفل ..

ـ وأنـا الذى سأكون أباه .. لذا يتعين على أن أهتم به وبك ..

ـ هل تـرى أن هذا هو الوقت المناسب لمناقشة هذه الأمور ؟

ـ وهل ترين أنه من اللائق أن تتركى زوجك ليعود إلى المنزل بمفرده ، وهو متعب على هذا النحو وتمكثى أنت هنا ؟

قالت له باستنكار :

ـ دعك من هذه الأفكار الشرقية العتيقة .. أنت الآن عالم أمريكى كبير ، ويجب أن تفكر بطريقة مختلفة ..

قال لها منفعلاً :

ـ كلا يا سيدتى .. إننى ما زلت مصريًا عقلاً وقلبًا .. ولن تفلحى فى تغيير جلدى .. وأفكارى ..

لاحظ الدكتور (نافع) الحديث الانفعالى الدائر بينهما .. فاقترب منهما وهو يهمس لهما قائلاً :

ـ ماذا حدث ؟ لماذا تبدوان منفعلين هكذا ؟

التفت إليه (عماد) قائلاً :

ـ لقد طلبت منها أن نعود معًا إلى المنزل كما أشرت على .. لكنها رفضت مغادرة المكان .. وطلبت منى أن أعود بمفردى لتلحق بى فيما بعد .. وعندما عاتبتها على ذلك ، وأخبرتها أنه لا يليق بها أن تتركنى أعود إلى المنزل بمفردى ، وبأنه يتعين عليها أن تراعى حاجتها للراحة بسبب الحمل اتهمتنى بأن تفكيرى شرقى ورجعى ..

نظر إليها الأب بغضب قائلاً :

ـ زوجك معه حق يا (نورا) .. يجب أن تعتذرى له وتذهبى معه فكلاكما بحاجة للراحة ..

قالت (نورا) :

ـ إذا كان ما قلته يحتاج إلى الاعتذار ـ حسن .. إننى أعتذر لك يا زوجى العزيز .. أما بالنسبة للحفل .. فإننى لا أرى أن هناك ما يمنع من بقائى ، واللحاق به فيما بعد .. ولا يحتاج الأمر لكل هذا الاتهام والجدل .. فقد اعتدت على أن أمارس حريتى الشخصية دون تدخل من أحد حتى منك أنت يا أبى ـ

قال الأب مؤنبًا :

ـ لكن ..

لكن (عماد) قاطعه قائلاً وقد زاده هذا الجدل إحساسًا بالضيق والتعب :

ـ حسن .. فلتحضر وقتما تشاء .. سأعود بمفردى إلى المنزل لأننى لم أعد أقوى على الاستمرار أكثر من هذا ..

ـ حسن .. سأصحبها معى فى سيارتى إلى المنزل بعد انتهاء الحفل ..

عاد (عماد) إلى منزله هو يترنح من شدة التعب .. حيث أدخل سيارته إلى (الجراج) الملحق بالمنزل ، وتوجه إلى المنزل مباشرة ليستعد للنوم ..

لكنه لم يدر ما الذى جعله يفكر فى النظر إلى صندوق الخطابات فى هذه اللحظة برغم تعبه .. وقبل أن يفتح الباب .. حيث عثر على خطاب عليه طابع بريد من مصر ، وما لبث أن وجد اسمها على الخطاب .. لقد كان الخطاب مرسلاً إليه من (ميرفت) ..

* * *

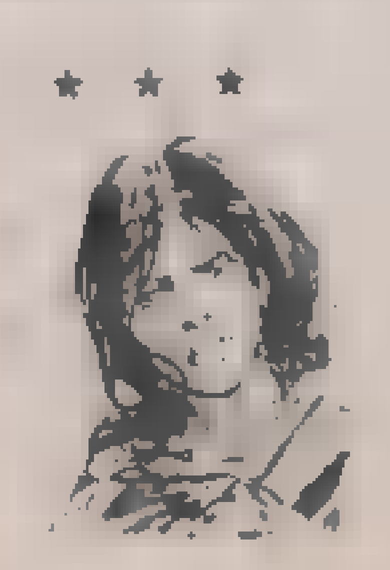

٦ ـ لا أستحقك ..

برغم حاجته الشديدة للنوم على النحو الذى دفعه لمغادرة الحفل ؛ إلا أن النوم جافاه منذ أن قرأ هذا الخطاب ..

وأعاد قراءته للمرة الثالثة ..

« حبيبى (عماد) ..

هذا هو الخطاب الخامس الذى أرسله إليك منذ أن تلقيت منك خطابك الأخير .. ذلك الخطاب الذى توقفت بعده تمامًا عن المراسلة .. ولم ألحظ منك بأى رد على أى خطاب من الخطابات الأربعة السابقة التى أرسلتها إليك .. ولا أدرى ما هو السر فى ذلك ؟ ولماذا انقطعت رسائلك عنى ؟ هل هى ظروف قاهرة تلك التى اضطرتك لذلك ؟ أم أن هناك شيئًا ما قد طرأ على مشاعرك نحوى ، جعلك تتوقف عن مراسلتى على هذا النحو ؟

كل ما أرجوه أن يكون المانع خيرًا .. وألا يكون قد أصابك أى مكروه ..

حبيبى الغالى .. هذا هو العام الثالث منذ سفرك إلى أمريكا .. وقد طال غيابك إلى الحد الذى يفوق احتمالى ، وقدرتى على مقاومة شوقى إليك .. والله وحده يعلم كيف مرّ علىّ كل يوم من أيام هذه الأعوام الثلاثة وأنا أتألم لبعادك عنى .. وفراقك لى ؟

وكيف حافظت على حبى وإخلاصى ووفائى لك كما تعاهدنا منذ أن رحلت إلى أمريكا ، وعلى النحو الذى حافظت به على حبى وإخلاصى ووفائى لك منذ أن تفتحت مشاعرى على معانى الحب الحقيقية على يديك .. تلك المشاعر التى بدت لنا غامضة ونحن فى سن الطفولة .. ثم ما لبثنا أن تبينا معناها عندما نضجت مشاعرنا ، وتأكد لكل منا أنه قدر الآخر .. يوم أن أدركت أنك الحب الأول والوحيد فى حياتى .. وأننى لا أستطيع أن أهب قلبى لشخص سواك ، وأن أكون زوجة إلا لك ..

حبيبى الغالى .. إن هذه الغيبة الطويلة .. وانقطاع رسائلك عنى قد جعلت البعض ومن بينهم أمى يشككون فى صدق مشاعرك نحوى .. ويفسرون ذلك على أنه تحول من جانبك عن الارتباط المتين الذى يجمع بيننا .. وأن الحياة فى أمريكا قد بددت حبك لى، وجعلتك تعدل عن الاستمرار فى الالتزام بوعدك بالزواج منى ..

وقد عرضنى ذلك لضغوط غير عادية وقاسية من أجل الاقتناع بهذا الأمر والتصرف على ضوئه .. وأنه يتعين علىَّ ألا ألزم نفسى أنا أيضًا بهذا الارتباط وألا أضيع العمر فى الانتظار .. لكننى أرفض هذه الضغوط وأقاومها دائمًا .. أتعرف لماذا ؟ لأننى لا أستطيع أن أصدق شيئًا من هذه الأقاويل .. لا يمكن أن أصدق أنك قد توقفت عن حبى .. أو تراجعت عن حلمنا بالارتباط الأبدى ..

لا يمكن أن أصدق إلا أنك مثلى تمامًا .. ما زلت على حبك وإخلاصك ووفائك لى برغم الوساوس التى تساورنى أحيانًا .. فحب كذلك الذى جمع بيننا لا يمكن التضحية به أو نسيانه ..

لكنى لم أعد أقوى على الصبر والاحتمال أكثر من ذلك .. إننى بحاجة لشىء .. أى شىء يطمئننى عليك وعلى أنك ما زلت مخلصًا لحبنا وعهدنا .. على النحو الذى أشعر به وأحسه ..

إننى لا أطلب الكثير .. وأنا أقدر ظروفك وأعباءك .. كل ما أطلبه منك هو أن ترد على خطابى هذا .. ولو برسالة قصيرة أطمئن من خلالها على أحوالك، ويطمئن قلبى على أنك ما زلت للعهد وفيًا .. وأن تلك الوساوس التى تنتابنى من آن لآخر فى غير محلها .. وينبغى ألا أعيرها ولا أعير كلام الناس حولى أى اهتمام ..

أرجوك يا (عماد) ـ إذا كانت هذه الرسالة قد وصلتك ـ أن تبادر بالرد عليها .. وأن ترأف بمشاعرى وقلبى اللذين وهبتهما لك ... ولا تتركنى للمزيد من الحيرة والحرمان والقلق .. فأنا لا أستحق منك ذلك .. وكفانى عذاب بعادك عنى ■

حبيبتك المخلصة (ميرفت) ..

أحس (عماد) بحزن عميق لأنه قابل هذا الحب العظيم وتلك المشاعر المخلصة بما لا تستحقه من خيانة وجحود .. لقد أعمته أنانيته وسعيه وراء الشهرة والمجد عن الحفاظ على هذا الحب وعلى الفتاة التى منحته أجمل المشاعر التى عرفها فى حياته .. والتى قد لا يلقى مثلها أبدًا ..

ولاجتاحه إحساس جارف بالشوق إليها .. وبالندم على تخليه عنها .. لكن بمَ يفيد الندم الآن بعد فوت الأوان ؟ وبعد أن ربط حياته بإنسانة لا يحبها ، ولا تستطيع أن

تمنحه الحب الذى عرفه من قبل مع (ميرفت) ولم يجد له مثيلاً فى حياته التى يحياها الآن .. برغم الشهرة والمجد اللذين بدآ يعرفان الطريق إليه .. إنه لن يستطيع أن يتراجع الآن عن الحياة التى اختارها لنفسه، والتى ترتبط ارتباطًا وثيقًا بحياته مع (نورا) .. بل ربما أنه لا يرغب فى هذا التراجع بعدما وصل إليه .. ولأن هذا الذى وصل إليه هو جزء من حلمه .. برغم مشاعر الندم التى تجتاحه الآن .. وبرغم حنينه إلى (ميرفت) ـ

لكن لا بد أن يقبل بالأمر الواقع .. وأنه لابد لتحقيق النجاح من تضحيات .. لذا فلم يكن أمامه سوى أن يضحى بحبه من أجل الوصول إلى النجاح الذى وصل إليه الآن .. وليس من السهل عليه أن يفعل العكس برغم حبه لـ (ميرفت) وضميره الذى يؤرقه ..

الشىء الوحيد الذى يستطيع أن يريح به ضميره الآن .. هو أن يطلعها على الحقيقة مهما كانت قسوتها ، ولا يتركها لمزيد من الانتظار والترقب

لأمل خادع .. فعليها أن تعيش حياتها القادمة مع الشخص الذى تستحقه بعد أن ربطت حياتها السابقة به وبحبها له ..

لقد آن لها أن تتحرر من قيد هذا الحب .. لتكون حرة فى اختيارها .. ولكى تواصل حياتها بالطريقة التى ترتضيها مثله ..

نعم عليه أن يخبرها بالحقيقة مهما كانت قسوتها .. لأن من الظلم أن يخفيها عليها أكثر من ذلك ..

إنه لم يقو على إخبارها بالتطورات الأخيرة التى حدثت فى حياته من قبل .. وظن أنها ستدرك الحقيقة من تلقاء نفسها، بعد أن امتنع عن الرد على خطابها الأخير .. فلم تكن لديه الشجاعة ليخبرها بالحقيقة .. لكن يبدو أنها ما زالت تحسن الظن به .. وتؤمن بإخلاصه لها على نحو يمنعها من استشفاف الحقيقة ..

فسنوات البعاد لم تنقص شيئًا من حبها له، ومن ثقتها بأنه لا يمكن له أن يتخلى عن هذا الحب مثلها، مهما كانت الأسباب والمغريات ..

إن مشاعرها البريئة لا تستطيع أن تتقبل ذلك .. وأقل ما يفعله هو ألا يغرر بهذه المشاعر أكثر من ذلك .. لكن ..

وفجأة تنبه لشىء ورد فى خطابها لم يتنبه إليه من قبل ..

لقد أخبرته فى رسالتها أنها أرسلت إليه أربعة خطابات من قبل، لكنه فى الحقيقة لم يتسلم منها سوى خطاب واحد .. هو الخطاب الأخير الذى امتنع عن الرد عليه وكان ذلك منذ عام تقريبًا ..

إذن .. فأين ذهبت الخطابات الثلاثة الأخرى ؟

* * *

نظرت زوجته إليه بدهشة قائلة :

ـ ألم تنم بعد ؟ كنت أظن أننى سأجدك غارقًا فى النوم .. ومع ذلك فهأنذا ما زلت مستيقظًا برغم ما ادعيته من تعبك وإرهاقك ..

نظر إليها بعينين فاحصتين قائلاً :

ـ حمدًا لله على سلامتك ..

قالت وهى تبدل ثيابها :

ـ ألم يكن من الأجدر بك أن تبقى معى حتى ينتهى الحفل الذى أقيم من أجلك ؟

لقد شعرت بالحرج من كثرة سؤال المدعوين عنك ..

ـ لم أكن أعرف أن هذا الطراز من المدعوين يثير اهتمامك .. خاصة أنك كنت تصفينهم بالعلماء الذين يثيرون الضجر .. ولا يجيدون الحديث عن شىء غير المعامل والأبحاث العلمية ، كما كنت تصفين زوجاتهم بالعجائز الثرثارات ..

قالت له وهى مستمرة فى تبديل ثيابها :

ـ كلا .. الأمر هذه المرة كان مختلفًا .. لقد كان هناك صحفيون وشخصيات تثير الاهتمام الحقيقى من الولاية .. خاصة تلك المذيعة التلفزيونية .. إنه على أية حال أفضل من الملل الذى أصبح يخيم على حياتى ومن البقاء فى المنزل ..

ـ أنت التى ترفضين الاستمرار فى الدراسة أو الالتحاق بوظيفة ما ..

ـ لقد كرهت الدراسة .. ثم ما العمل الذى يمكن أن ألتحق به الآن بشهادة متوسطة ؟ خاصة بعد أن أصبحت زوجة لعالم كبير مثلك ..

ـ هناك الكثير من الأعمال التى تستطيعين أن تلتحقى بها .. على الأقل لتتخلصى من هذا الملل الذى تتحدثين عنه ..

ـ وهل نسيت الطفل الذى أحمله ؟ إننى لم أكن شديدة الحماسة للوظيفة أو الدراسة قبل أن أحمل .. فما بالك وقد أصبحت حاملاً الآن ..

ـ على أية حال .. هذه حياتك .. وأنت حرة فى اختيارها ..

ـ هل أخبرك بالحقيقة ؟ إننى سريعة الضجر من أى شىء .. ولا أظن أننى أستطيع مواصلة الحياة على منوال واحد لفترة طويلة ..

ولكن قل لى .. هل قررت أن تبقى مستيقظًا حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل لتحدثنى عن ذلك .. أم ترقبًا لموعد حضورى ؟

ـ بل كنت أترقب حضورك بالفعل ..

قالت له وفى صوتها نبرة تحد :

ـ وهأنذا قد عدت .. هل تريد مواصلة الشجار الذى بدأناه فى الحفل ؟

ـ بل أريد أن أسألك عما إذا كنت قد أخذت خطابات خاصة بى خلال الأشهر الماضية دون أن تسلميها إلى أو تخبرينى عنها ؟

نظرت إليه بدهشة .. وقد طال صمتها برهة من الوقت قبل أن تقول له بعصبية :

ـ أية خطابات ؟ وما شأنى بخطاباتك ؟

ـ أنت تعرفين ما أقصده .. وأنا واثق أنك قد أخذت هذه الخطابات من صندوق البريد .. واطلعت عليها من وراء ظهرى .. ثم احتفظت بها لنفسك ..

نظرت إليه باستعلاء قائلة :

ـ بل مزقتها ـ لو أردت أن تعرف ..

* * *

٧ـ الحقيقة القاسية ..

اكتسى وجهه بملامح الغضب قائلاً بانفعال :

ـ كيف تفعلين ذلك ؟

قالت له بانفعال مماثل :

ـ أنا التي يتعين على أن أسألك .. ما الذي يدعوك للاهتمام بهذه الفتاة وبخطاباتها الآن بعد أن انتهت علاقتك بها .. وأصبحت رجلاً متزوجًا ؟

ـ المسألة لا تتعلق بها .. أو بكوني رجلاً متزوجًا .. المسألة هي كيف تسمحين لنفسك بالاطلاع على خطابات مرسلة لي وتعطين لنفسك الحق في إخفائها عني وتمزيقها ؟

قالت وقد تحولت عصبيتها إلى استخفاف :

ـ من حقي أن أدافع عن حياتي الزوجية ..

ـ بخيانة الثقة .. وعدم احترام خصوصيات الزوج .. إنك تسيئين بذلك إلى معنى العلاقة الزوجية .. إن اطلاعك على خطاباتي من وراء ظهري يعد أمرًا مشينًا في حد ذاته ..

ـ لقد فعلت ذلك بالنسبة للخطابات المرسلة من مصر فقط ، والتي تحمل اسم خطيبتك السابقة .. أما ماعدا ذلك فأنا لم أحاول أن أفعل نفس الشيء بالنسبة لأية خطابات أخرى مرسلة إليك ..

ـ هذا لا يبرر خطأك ..

ـ ربما أكون قد أخطأت .. ولكن عذري هو أنني كنت أدافع عن كرامتي كزوجة .. فلا أظن أنك كنت ستسمح لي باستلام خطابات مرسلة لي من خطيب أو حبيب سابق .. دون أن تحاول الاطلاع عليها ومعرفة سبب إرسالها لي ..

ـ ولماذا مزقتها دون أن تطلعيني عليها ؟

- لنفس السبب .. هل كنت تريد منى أن أقدم لك طواعية خطابات أرسلتها حبيبتك السابقة ، مفعمة بكلمات الحب والمشاعر الملتهبة .. لأقف بجوارك ، وأراقبك وأنت تقرؤها باستمتاع ؟

- على الأقل كنت تتركين لى حرية التصرف فى هذا الشأن ..

قالت وهى تقترب منه وتحدجه بنظرة متصلبة :

- لقد تصرفت بالطريقة المناسبة .. وفعلت بنفسى ما كان يتعين عليك أن تفعله ..

- وما أدراك أنت بما كنت أنوى فعله ؟

- من المفترض أننى تزوجت رجلاً محترمًا .. وما فعلته هو ما كان يجب أن تفعله ويفعله أى زوج محترم .. أم أنك كنت تنوى الاحتفاظ بهذه الخطابات ؟ أو ربما الرد على صاحبتها بنفس الأسلوب الذى عبرت به عن مشاعرها تجاهك ؟

صاح فى وجهها قائلاً :

- من حقى أن أفعل ما أريد ..

قالت له بتعال :

- كلا .. ليس من حقك أن تفعل ما تريد .. فهناك التزامات وأخلاقيات يفرضها عليك زواجنا يا دكتور (عماد) ..

ليس هذا فحسب .. بل هناك أشياء كثيرة تدين بها لتلك الأسرة التى ارتبطت بها ، تدعونى إلى أن أتوقع منك أن تكون أكثر التزامًا من الأزواج الآخرين ..

- ماذا تعنين بذلك ؟

- لابد أنك تفهم ما أعنيه ..

- إنك لاتكتفين بارتكاب الخطأ .. بل ترفضين أيضًا الاعتذار عنه .. وتتمادين فى محاولة الإساءة لزوجك ..

صاحت فى وجهه قائلة :

- هل يمكنك أن تخبرنى من منا الذى يسىء للآخر الآن ؟ إن اهتمامك بهذه الخطابات يعنى أنك مازلت مهتمًا بمن أرسلتها ..

- إن اهتمامى هو بالمبادئ .. وبالاحترام الذى ...

قاطعته بانفعال قائلة :

- دعك من هذا .. وقل لى كيف عرفت بأمر هذه الخطابات ؟

- هل المشكلة هى كيف عرفت ؟ أم بالمبدأ الذى نتحدث عنه ؟

تجاهلت سؤاله قائلة :

- لابد أنه قد وصلك منها خطاب جديد لخبرتك فيه عن رسائلها السابقة ..

- وهل تظنين أنه كان من الممكن إخفاء هذا الأمر عنى إلى الأبد ؟

- إذن .. فقد تسلمت خطابًا آخر منها ..

قال لها وهو يغادر المكان :

- لم تعد هناك جدوى من المناقشة معك ..

لكنها صاحت فى وجهه قائلة وهى تعترض طريقه :

- أين هى هذه الرسالة ؟

قال لها بعصبية :

- أية رسالة ؟ لم أكن بحاجة لاستلام رسائل أخرى لمعرفة ما فعلته بالخطابات السابقة ..

فهل نسيت أن الخطابات المرسلة إلى المركز العلمى يتم تحويلها تلقائيًا إلى المنزل بوسلطة ساع متخصص ؟ ومن الممكن معرفة الأمر منه لو أردت ..

قالت له بانفعال :

- لا تراوغنى .. فأنا أيضًا أستطيع أن أسأل (ماك) الساعى لمعرفة الحقيقة ..

أزاحها عن طريقه وقد زاد ضيقه بها قائلاً :

ـ اسألى ما تشائين .. ولكن ابتعدى الآن عن طريقى ودعينى أنم ..

وغادر حجرة نومها متجهًا إلى إحدى الحجرات الأخرى فى المنزل ، لينام بها وهو فى أشد حالات الغضب ..

بينما بدت (نورا) ثائرة بدورها .. وقد استولت عليها الشكوك واستبد بها الغل والغضب وهى تروح وتغدو فى الحجرة ..

ثم ما لبثت أن أشعلت سيجارة .. وأخذت منها بضعة أنفاس .. قبل أن تطفئها فى منفضة سجائر زجاجية بعصبية ..

وسرعان ما تناولت منفضة السجائر لتقذف بها على الأرض وتهشمها ..

* * *

توقفت (ميرفت) عن متابعة سيرها لدى رؤيتها (مصطفى) مقبلاً عليها ..

قالت له مرحبة :

ـ أهلاً يا (مصطفى) .. حمدًا لله على سلامتك ..

لكنه بدا متجهمًا وهو ينظر إليها قائلاً :

ـ كيف حالك يا (ميرفت) ؟

ـ أنا بخير .. وأنت ؟

ابتسم وهو يتأمل ملامح وجهها الملائكى الرقيق قائلاً :

ـ أنا بخير ما دمت أراك بخير ..

بدت متحرجة وهى تسأله قائلة :

ـ ألم يصلك خطاب من (عماد) بعد ؟

تلاشت الابتسامة عن وجهه حينما سمع منها هذا السؤال ، لتحل محلها ملامح الضيق وهو يرد قائلاً :

ـ كلا .. لم تصلنى منه أية خطابات أخرى عدا ما أخبرتك عنه من قبل ..

قالت وملامح الأسى على وجهها :

ـ وأنا أيضًا لم تصلنى منه أية خطابات منذ أكثر من عام ..

نظر إليها بإشفاق قائلاً :

ـ أما زلت تترقبين عودته ؟

قالت وهى تخفض بصرها :

ـ بلى ..

ـ لابد لك أن تنسيه يا (ميرفت) ..

نظرت إليه باستنكار قائلة :

ـ كيف تطلب منى ذلك يا (مصطفى) ؟

أشاح بوجهه إلى الجهة الأخرى قائلاً :

ـ كنت أظن أنك تعرفين ..

ـ أعرف ماذا ؟

نظر إليها وملامح التردد والحيرة على وجهه .. كما لو كان يبحث عن إجابة .. مما زاد من قلقها فعادت تلح عليه بالسؤال قائلة :

ـ ما الذى كان يتعين على أن أعرفه ؟ قل يا (مصطفى) ..

أجابها بعد برهة من الصمت :

ـ لقد حصل (عماد) على الدكتوراه .. واحتل وظيفة مرموقة فى أحد المراكز العلمية الأمريكية يحلم بها الكثيرون .. كما إنه .. كما إنه قد تزوج !

نظرت إليه بعينين غير مصدقتين قائلة :

ـ تزوج !

ـ نعم .. تزوج من ابنة أحد العلماء المصريين الذين يعملون فى أمريكا ..

أخذت تهز رأسها وكأنها ترفض تصديق ما سمعته .. قائلة بصوت متهدج :

ـ كلا .. لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا ..

قال لها وقد ازداد إشفاقًا عليها :

ـ أعرف أن ما أقوله مؤلم .. لكن هذه هى الحقيقة .. وعليك أن تصدقيها ..

صاحت فى وجهه قائلة :

ـ كيف تريد منى أن أصدق ذلك ؟

ـ لأنه الحقيقة ..

وأخذ يقلب فى صفحات مجلة أسبوعية يحملها معه قائلاً :

ـ لقد وقعت هذه المجلة فى يدى منذ يومين مصادفة .. ووجدت هذا الخبر بها مرفقاً به صورة فوتوغرافية (لعماد) وزوجته بمناسبة إحدى الحفلات التى أقيمت لهما فى (أمريكا) ..

نظرت (ميرفت) إلى الصفحة التى يوجد بها الخبر .. وهى لا تصدق عينيها ..

لقد كانت صورة (عماد) وهو يتأبط ذراع هذه السيدة الحسناء .. وقد دون تحتها اسمه واسم زوجته ..

وقد أشار الخبر إلى حضور الدكتور (عماد) وزوجته إحدى الحفلات ، التى أقيمت خصيصاً من أجل تكريمه بمناسبة توصله لاكتشاف جديد ، أثار اهتمام الأوساط العلمية الأمريكية بشأن الجيولجيا الكونية ..

وقد استطرد الكاتب قائلاً : ومن المعروف أن الدكتور (عماد) يعد الآن من العلماء المعدودين فى هذا المجال .. وأنه قد حقق لنفسه ولوطنه شهرة كبيرة بعد توصله لهذا الاكتشاف العلمى الكبير .. كما أنه من المعروف أنه متزوج من ابنة أحد الأساتذة المصريين الذين سبقوه فى هذا المجال .. وهو الدكتور (نافع) ..

وقد أكد الدكتور (عماد) أنه يدين بالفضل للدكتور (نافع) ولزوجته فيما وصل إليه من نجاح ..

وبسؤاله عما إذا كان ينوى العودة إلى مصر أم البقاء فى (أمريكا) أجاب بأنه لم يفكر فى ذلك بعد .. وأن ما يعنيه الآن هو مواصلة البحث بشأن اكتشافه الجديد .. وتأكيد نظرياته بشأن بعض الدراسات الأخرى ..

حدقت (ميرفت) فى المجلة بذهول .. وقد بدت آثار الصدمة واضحة على وجهها ..

بينما حاول (مصطفى) أن يخفف من وقع الصدمة عليها ..

ـ آسف إذا كنت قد تسببت فى إيلامك .. لكنى لا أقبل

أن تظلى مخدوعة أكثر من ذلك.. أظن أنه لم يعد هنـاك مجال لمزيد من الانتظار والأوهام يا (ميرفت) ـ

نظر إلى عينيها الذاهلتيـن والمغرورقتين بـالعبرات ـ قائلاً :

ـ (ميرفت) .. إننى ..

لكنها اندفعت تركض بعيدًا عنه وقد انهمرت العبرات من عينيها ..

* * *

٨ ـ مـازلت أحبه ..

مضى أسبوع علـى وفـاة والـدة (ميرفت) حينمـا فوجئت بساعى البريد يحضر لها خطابًا من (أمريكا) ..

لم تكن عيناها قد جفتا من الدمع بعدُ حزنًـا على وفاة أمها، التى فقدت بموتها الصدر الحنون الذى كانت تلجأ إليه فى أحزانها وهمومها ، والتى رحلت وفى قلبها غصة وحسرة بسبب الصدمة التى تلقتها (ميرفت) على إثر معرفتها بخيانة (عماد) لها وتخليه عنها .. تلك الصدمة التى عصفت بآخر ما تبقى لديها من أمل ..

فضت (ميرفت) الخطاب الذى وجدت اسم (عماد) عليه قائلة :

ـ أخيرًا يا (عماد) .. أخيرًا وصلنـى خطـابك الـذى ظللت أنتظره كل هذا الوقت .. ترى .. لم أرسلته الآن ؟ هل لتعزينى فى وفاة أمى ؟ أم لتعزينى فى ضيـاع حبى وآمالى التى عقدتها عليك ؟

« حبيبتى (ميرفت) .. أتمنى من الله أن تكونى فى أتم صحة .. وأحسن حال .. وبعد ..

ترددت طويلاً قبل أن أكتب إليك هذا الخطاب .. فهناك أشياء كثيرة قد حدثت منذ آخر خطاب أرسلته لك يصعب على أن أخبرك بها ، أو بمعنى أدق أن أعترف لك بها .. لكنى لا أستطيع أن أخفيها عليك أكثر من ذلك ..

حبيبتى .. أعرف أن ما ستقرئينه قد يغير كثيرًا من نظرتك إلىّ ومن مشاعرك نحوى .. وأنك ستتهميننى بالغدر والخيانة ـ ولا أستطيع أن ألومك على ذلك ..

لكن صدقينى .. هناك أشياء كثيرة قد يضطر المرء لفعلها دون إرادة منه ودون أن يرضى عنها .. أو يرضى حتى عن نفسه .. وقد عشت هذه التجربة بالفعل ..

لقد وجدت نفسى فى منعطف خطير فى حياتى .. كنت مهددًا بضياع كل ما ضحيت وحاربت من أجله .. وكل ما حلمت به ..

كان يتعين علىّ أن أتزوج من ابنة أستاذى .. وأرجوك لا تتسرعى باتهامى بأننى قد خنت العهد والحب .. فأنا مازلت أحبك وأقسم بأننى لم أحب أحدًا سواك .. كما أن مشاعرى مازلت على العهد بالوفاء لمشاعرك ..

لكن طموحى وظروفى كانت أقوى منى .. فقد ألمح لى أستاذى الذى أصبحت أسيرًا لأفضاله فى الدراسة وفى العمل وفى المعيشة ، بأنه يستطيع أن يجردنى من كل شىء لو لم أستجب لرغبته فى زواجى من ابنته .. حاولت أن أقنعه بأننى أحبك وبأننا مرتبطان ومتفقان على الزواج بعد الحصول على الدكتوراه .. لكن إصراره على أن يسلمنى قياد ابنته المستهترة والعنيدة .. لأرفع عن كاهله أعباء رعايته لها فى هذا المجتمع الذى يسلب الأب الكثير من سلطاته وحقوقه على الأبناء ؛ كان الثمن الذى ساومنى عليه للاستمرار فى مساعدتى على مواصلة الطريق الذى قطعت فيه شوطًا طويلاً ، وفتح أبوابًا كثيرة للنجاح أمامى ..

ولم أستطع المقاومة .. فأنا لم أتصور أن أفقد كل ما حلمت به من نجاح بعد هذا الشوط الطويل الذى قطعته .. لم أكن لأستطيع حتى أن أعود إليك نفس الشخص الذى عرفته لو حدث لى ذلك .. فاستسلمت وتزوجت ابنته .. تزوجتها بجسدى وعقلى .. لكن قلبى ما زال ملكًا لك وحدك .. ولا أظن أن هناك من تستطيع أن تمتلكه سواكِ .. خاصة أن الفارق شاسع بين الفتاة التى تزوجتها .. وتلك التى أحببتها ..

أعرف أن ما قلته لا يعد تبريرًا كافيًا لفعلتى .. وأعرف أننى سأظل فى نظرك الشخص الذى تخلى عنك وغدر بحبك له ، وبانتظارك الطويل من أجله كل هذه السنين .. وربما كنت أنا نفسى غير مقتنع بالتبرير الذى أحاول أن أبرره لنفسى أمامك .. فقد أكون شخصًا أنانيًا أو نفعيًا أو انتهازيًا .. قولى فىّ ما تشائين .. لكن لاتقولى إننى لا أحبك أو إننى قد نزعت هذا الحب من قلبى أو نسيته .. لأن هذا الحب مازال حيًا بداخلى ..

ولن يموت إلا بموتى ، حتى لو لم أكن قادرًا على المجاهرة به أو تحمل تبعاته ..

كل ما أريد أن تعرفيه هو أننى قد كتبت هذا الخطاب إليك ، وقلبى يعتصره الحزن والألم لكى تتوقفى عن انتظارى أو ترقب أى خطابات أخرى تأتيك منى .. عليك أن تبدئى حياتك مع شخص آخر .. ربما لن يحبك أكثر منى ، لكنه لابد وأن يستحقك أكثر منى ..

عيشى حياتك يا حبيبتى .. وانسينى .. لكن قبل أن تنسينى .. أرجوك أن تسامحينى ..

(عماد) ..

بللت عبراتها صفحات الخطاب .. وقبل أن تصل إلى نهايته كانت العبرات قد جفت فى عينيها ..

وردت قائلة :

ـ أسامحك ؟ نعم يا حبيبى .. سأسامحك برغم كل شىء .. كما أننى لن أستطيع أن أنساك .. بل ربما بعد أن تهدأ مشاعرى الملتاعة أجد نفسى أقدر دوافعك ..

وظروفك التى اضطرتك للتخلى عنى .. والتضحية بحبنا من أجل مستقبلك .. فأنا أعرفك جيدًا ـ وأعرف ماذا يعنى بالنسبة لك هذا المستقبل .. وربما لو كنت قد أخبرتنى من قبل أن زواجنا كان سيأتى على حساب مستقبلك ـ لضحيت بهذا الزواج برغم أن هذا الزواج أيضًا كان حلم عمرى .. من أجل أن تحظى بالنجاح الذى تنشده .. ولأنه ربما كنت قد كرهتنى لأننى كنت يومًا سببًا فى ضياع هذا المستقبل الباهر منك .. وأنا أفضل أن تحتفظ لى بقدر من الحب وأنت زوج لسواى .. على كراهيتك لى وأنت زوجى .. عن حياتك .. ونجاحك يا حبيبى .. ولكن لا تطالبنى أن ابدأ مع غيرك .. أو أحيا حياتى بنفس طريقتك .. فحياتى قد وهبتها من أجل حبك .. ولا يمكن أن يدخلها أحد بعدك .. قد لا يرضى هذا الكثيرين .. ولكنى سأرضى بما قسمه لى القدر وبما عاهدت

نفسى عليه .. وإذا لم تكن قادرًا على المجاهرة بهذا الحب وتحمل تبعاته كما ورد فى خطابك ، فإننى قادرة على ذلك ومستعدة لتحمل كل التبعات ..

* * *

انقضى شهران على تسلمها لهذا الخطاب .. والذى قضى على آخر أمل فى زواجها من الشخص الوحيد الذى أحبته ..

وبينما هى جالسة فى منزلها تستعيد ذكرياتها القديمة سمعت دقات على باب المنزل ..

فتحت الباب لتجد (مصطفى) واقفًا أمامها .. وقد حياها قائلاً :

ـ صباح الخير يا (ميرفت) ..

أحست بارتياح لرؤيته .. فقالت له مرحبة :

ـ أهلاً يا (مصطفى) ..

وبدا عليها الارتباك وهى لا تدرى ما إذا كان يتعين عليها أن تدعوه للدخول - وقد أصبحت بمفردها فى المنزل - أم تكتفى بالحديث إليه من الباب ..

فهى برغم ثقتها وصداقتها (لمصطفى) إلا أنه يتعين عليها أن تحافظ على التقاليد - كما أن ألسنة الناس فى البلدة لا ترحم .. خاصة بعد أن أصبحت وحيدة ..

أحس (مصطفى) بحرجها .. فقال لها :

- (ميرفت) أريد التحدث إليك ..

قالت له مترددة :

- حسن تفضل ..

- كلا .. سأنتظرك بالخارج بجوار شجرة الجميز القديمة .. يمكنك أن تلحقى بى هناك ..

- هل الأمر مهم لهذه الدرجة ؟

- بالنسبة لى .. هو كذلك ..

ذهبت إليه حيث وجدته واقفًا فى انتظارها ..

وما لبث أن سألها قائلاً :

- ما الذى قررت أن تفعليه الآن بعد وفاة والدتك ؟

- وما الذى يمكننى أن أفعله !

- إن بقاءك بمفردك هكذا أمر غير مستحب .. خاصة وإنه لا يوجد لك أقارب فى البلدة ..

اغتصبت ابتسامة حزينة رسمتها على شفتيها وهى تقول له :

- أهل البلدة كلهم أقاربى ..

- نعم .. ولكن هذا لا يمنع من أن حياتك فى هذا المنزل بمفردك أمر غير مقبول .. خاصة أن الوحدة تجتر الأحزان والذكريات الأليمة ..

- إننى أخرج أحيانًا .. كما أن بعض فتيات القرية يزرننى أحيانًا أخرى .. وهذا يخفف عنى بعض الشىء ..

ومالذا عندما يأتى عليك الليل .. وتجدين نفسك مضطرة للمبيت فى هذا المنزل بمفردك ؟

عادت لتغتصب ابتسامة حزينـة .. ارتسمت على شفتيها وهى تحدثه قائلة :

- أتظن أننى سأخاف من النوم بمفردى ! إن روح أمى رحمها الله مازالت تشاركنى المكان ..

- ليس هذا ما أقصده ..

نظرت (ميرفت) إليه متسائلة :

- ماذا تريد أن تقول يا (مصطفى) ؟

قال محاولاً التغلب على تردده :

- أقول إنه آن الأوان لكى تفكرى فى الزواج ..

نظرت إليه بدهشة قائلة :

- الزواج .. هل هذا ما جئت لتحدثنى عنه ؟

قال لها متشجعًا :

- نعم .. لا أظن أنه يوجد ما يحول دون ذلك الآن .. فأنت ما زلت صغيرة وجميلة .. والتزامك برعاية والدتك لم يعد قائمًا بعد وفاتها ..

كما أن التزامك تجاه الارتباط الذى كان قائمًا بينك وبين (عصام) قد انفض أيضًا بعد أن أنهاه هو بنفسـه .. وقرر أن يعيش حياته بالطريقة التى اختارها ..

قالت وقد اكتسى وجهها بمسحة حزينة :

- إننى لم أعد أفكر فى هذا الأمر ..

- ومتى تفكرين يا (ميرفت) ؟

نظرت إليه قائلة :

- إننى لن أتزوج يا (مصطفى) ..

قال لها بضيق :

- ما هذا الذى تقولينه ! إن من حقك ...

قاطعته قائلة :

ـ أعرف أنه من حقى أن يكون لى زوج وأبناء وأسرة .. لكنى لست راغبةً فى ذلك .

قال بعد برهة من التردد :

ـ حتى لو كان الشخص الذى يرغب فى الزواج منك هو أنا ؟

نظرت إليه بدهشة قائلة :

ـ أنت !!

ـ نعم يا (ميرفت) هذا ما أتمناه ..

ـ إننى أقدر لك ذلك .. وأعرف أنك شخص نبيل وعطوف .. وأنك تشفق علىّ من ...

قاطعها بدوره قائلاً بصوت متهدج :

ـ كلا يا (ميرفت) .. ليس للأمر علاقة بالعطف أو الشفقة .. إننى أحبك وحبى لك لم ينشأ من اليوم أو بالأمس .. بل منذ مرحلة مبكرة .. منذ أن كنا صغارًا نلعب معًا أنا وأنت و(عماد) ..

إنك لم تعرفى ذلك فى حينه لأننى لم أستطع أن أبوح بهذا الحب .. بعد أن سبقنى (عماد) فى التعبير عنه .. وبعد أن رأيت تجاوبك مع مشاعره ..

لقد أخفيت هذا الحب فى قلبى كل هذه السنين الطويلة .. بل حاولت حتى أن أخفيه عن نفسى حتى لا يبدو واضحًا فى تصرفاتى معك .. وتمنيت لك و(عماد) السعادة فى حبكما .. وأقنعت نفسى بأن أبقى محتفظًا بدور الصديق ..

نظرت إليه وقد زادت دهشتها قائلة :

ـ (مصطفى) .. ماذا تقول ؟

ـ لقد انتقلت للعمل والإقامة فى الإسكندرية خصيصًا، سعيًا وراء الهرب من مشاعر العذاب والغيرة والحرمان التى أحسست أنها تنتابنى كلما رأيتك أنت و(عماد) .. فقد أدركت أن بالرغم من صداقتى ومباركتى للحب الذى جمع بينكما .. وما تمنيته لكما من سعادة فإننى بشر فى النهاية .. وإن مقاومة هذه المشاعر يفوق طاقتى وبشريتى ، خاصة أننا كنا مضطرين للتقابل دومًا ..

لكن أظن أن من حقى الآن أن أعبر عن هذا الحب .. وأن أخبرك به .. بعد أن انتهى الأمر بالنسبة لـ (عماد) .. أليس كذلك ؟

ظلت تنظر إليه لبرهة دون أن تنطق بشيء .. فلم تكن تتوقع ما سمعته منه .. ثم ما لبثت أن قالت :

- إننى أقدر مشاعرك هذه برغم أنها كانت مفاجأة بالنسبة لى .. كما إننى أحترم كتمانك لهذه المشاعر كل هذه السنين .. لكن هذا لن يغير فى الأمر شيئًا بالنسبة لى .. فأنا لا أريد أن أتزوج .. وخاصة منك أنت .. وبعد ما قلته لى ..

- لماذا ؟ هل أنا بغيض إلى هذا الحد ؟

سارعت لتقول :

- لا يا (مصطفى) .. لا تفهمنى خطأ .. المشكلة .. أنه برغم كل شيء فما زالت عواطفى متعلقة بـ (عماد) ..

ولم تتحرر مشاعرى من حبه بعد .. فكيف أرضى لك أن تعيش مع فتاة تحيا بمشاعرها وعواطفها مع شخص آخر ؟

قال (مصطفى) بيأس :

- لكنه لا يستحق هذه المشاعر ..

قالت له بعينين مغرورقتين بالعبرات :

- لكننى لا أملك شيئًا حيالها ..

نظر إلى (دبلة) الخطبة التى ما زالت تحتفظ بها فى إصبعها قائلاً :

- إنك تظلمين نفسك ..

- إننى آسفة يا (مصطفى) ..

نظر إليها بإشفاق قائلاً :

- إننى لن أفقد الأمل فى أن ترفعى عن نفسك هذا الظلم فى يوم من الأيام .. وحتى يحدث ذلك فسوف أظل قانعًا بدور الصديق ..

* * *

٩ ـ امـرأة مستهترة ..

عاد (عماد) إلى منزله فى ساعة متأخرة من الليل .. بعد عودته مباشرة من المطار بعد أن قضى يومين فى (نيويورك) لحضور أحد المؤتمرات العلمية ..

وما إن دخل إلى المنزل حتى نزع عنه معطفه وهو ينادى زوجته ـ لكنها لم تستجب لندائه .. برغم أنه قام بخفض الصوت فى جهاز التلفزيون الذى وجده مفتوحًا ..

فصعد إلى غرفته ليبحث عنها .. فلم يجدها .. مما أثار دهشته .. ولم يلبث أن توجه إلى حجرة ابنته .. لكنه لم يجدها أيضًا .. مما زاد من حيرته .. لكنه سمع صوتًا فى شرفة الحجرة قبل أن يغادرها .. فتوجه إلى باب الشرفة حيث وجده غير مغلق .. فقام بفتحه .. وسرعان ما وجد ابنته منزوية

فى أحد أركان الشرفة ، وقد جلست القرفصاء وضمت يديها إلى صدرها .. وجسمها يرتجف من شدة البرد ..

فاندفع نحوها بانزعاج يسألها قائلاً :

ـ (منى) .. ماذا تفعلين هنا ؟ وفى هذا المناخ القارس البرودة ؟

أسرعت الطفلة لتتعلق به وهى تبكى قائلة :

ـ أبى .. لقد كنت خائفة ـ

حملها بين ذراعيه ليدخلها إلى الحجرة قائلاً :

ـ خائفة من ماذا ؟

قالت وجسدها الصغير ما زال يرتعد من شدة البرد :

ـ من الوحش المخيف الذى يقتل الناس ..

قام الأب بوضعها فى الفراش وهو يدثرها بالأغطية .. قائلاً :

ـ أى وحش ؟

قالت بخوف :

ـ الذى رأيته فى التليفزيون ..

ـ هل كنت تشاهدين التليفزيون ؟

أجابته قائلة :

ـ نعم .. لقد أسرعت لأختبئ فى الشرفة من هذا الوحش المخيف ..

مسح بيده على شعرها ليهدئ من مخاوفها قائلاً :

ـ وما الذى جعلك تسهرين حتى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ كان ينبغى أن تكونى نائمة منذ عدة ساعات ..

ـ لقد حاولت أن أنام لكنى لم أستطع .. فقد كنت خائفة ..

ابتسم لها بحنان قائلاً :

ـ من الوحش ؟

ـ بل لأننى كنت وحدى فى المنزل ..

نظر إليها باستغراب قائلاً :

ـ لوحدك .. وأين ماما ؟

ـ لقد غادرت المنزل ..

ـ متى غادرت المنزل ؟

ـ منذ فترة طويلة ..

ـ ألم تخبرك بالمكان الذى ستذهب إليه ؟

أجابته الطفلة قائلة :

ـ نعم .. لقد طلبت منى فقط أن أتناول عشائى وأنام مبكرًا .. لكنى لم أستطع ذلك ..

ارتسمت ملامح الغضب على وجه (عماد) وهو يسألها قائلاً :

ـ ألم تتركك بصحبة مدبرة المنزل ؟

أجابته الطفلة قائلة :

ـ بلى .. لكنها انصرفت بعد مغادرة ماما للمنزل بساعة تقريبًا .. بعد أن أجرت اتصالاً هاتفيًا .. وقالت لى إنها مضطرة للذهاب لموعد مهم ..

ازدادت ملامح الغضب على وجه (عماد) وهو يقول :

- وهل تناولت عشاءك أم لا ؟

أجابته قائلة :

- لقد تناولت إحدى الشطائر التى تركتها لى أمى قبل ذهابها ..

سألها قائلاً :

- هل أحضر لك شطيرة أخرى ؟

- كلا ..

- إذن سأحضر لك كوبًا من اللبن لتشربيه .. وتنامى بعدها مباشرة ..

ونهض ليدير جهاز التكييف حتى يشيع الدفء فى الحجرة ، قبل أن يتوجه لإحضار كوب اللبن ..

استوقفته الطفلة قائلة :

- بابا لا تتركنى بمفردى .. إننى خائفة من الوحش ..

حاول أن يرسم ابتسامة مطمئنة على وجهه قائلاً :

- لا تخافى .. إنها مجرد صورة تليفزيونية .. ولا يوجد أى وحش فى الحقيقة مثل ذلك الذى شاهدته ..

قالت له دون أن تتخلص من مخاوفها تمامًا :

- لكن لا تطفئ نور الحجرة .

قال لها مطمئنًا :

- لن أطفئه .. سأحضر كوب اللبن وأحضر على الفور ، ولن أتركك حتى تنامى مطمئنة تمامًا ..

لكن ما إن غادر الحجرة حتى أطلق زفرة طويلة لينفث بها عن غضبه ، ثم أعد كوب اللبن للفتاة فى المطبخ فأطاح ببراد الشاى الموضوع فوق الغاز بيده فى انفعال شديد ، قائلاً لنفسه :

- إلى متى سيمكننى تحمل هذه التصرفات ؟

واتصل بمنزل الدكتور (نافع) ليسأل عن زوجته .. لكنه لم يجد الدكتور (نافع) ولم يجدها .. مما زاد من توتره ..

حاول إخفاء هذا التوتر عن ابنته .. وظل جالسًا بجوارها حتى اطمأن على أنها قد نامت .. فقام بإطفاء نور الحجرة عائدًا إلى حجرته .. وجلس يترقب عودة زوجته ..

وفى الثانية بعد منتصف الليل عادت إلى المنزل ، بينما كان لا يزال جالسًا فى انتظارها دون أن يبدل ثيابه ..

وما إن أضاءت نور الحجرة حتى فوجئت برؤيته .. فتراجعت إلى الوراء وهى تهتف قائلة :

ـ (عماد) .. متى عدت من السفر ؟

قال لها بهدوء مشوب بالغضب :

ـ أنا هنا منذ ثلاث ساعات تقريبًا ..

قالت وهى تحاول أن تسترد رباطة جأشها :

ـ لكنك أخبرتنى أن المؤتمر لن ينتهى قبل ثلاثة أيام ..

ـ المؤتمر مازال منعقدًا .. لكن دورى فيه قد انتهى ..

فانتهزت الفرصة لأعود وأقضى بعض الوقت مع أسرتى .. لكن يبدو أنك لم تتوقعى حضورى الليلة .. فسمحت لنفسك أن تقضى كل هذا الوقت بالخارج ..

قالت بلا مبالاة :

ـ لقد ذهبت لزيارة بعض أصدقائى ..

ـ حتى الثانية صباحًا ؟

قالت وهى تستعد لتبديل ثيابها :

ـ وماذا فى ذلك ؟ لقد انتابنى الملل من بقائى طول اليوم فى المنزل ..

قال وقد زادته لا مبالاتها انفعالاً :

ـ وماذا عن ابنتك الصغيرة ؟

قالت وهى تبدل ثيابها :

ـ لقد تركتها فى رعاية جليسة أطفال ..

ـ جليسة الأطفال غادرت المنزل بعد وقت قليل من مغادرتك له ..

- كيف تفعل ذلك ؟ إننى لن أدفع دولارًا واحدًا لهذه الفتاة المستهترة .. وفضلاً عن ذلك فإننى سوف أشكوها ..

- هل هى وحدها المستهترة ؟ وماذا عن الأم التى تترك بيتها وطفلتها لزيارة أصدقائها .. ثم تعود فى الثانية صباحًا إلى المنزل .. ولا تفكر حتى أن تلقى نظرة على الابنة ؟!

- إنك لن تجعل منها مشكلة .. ولا داعى لأن ترفع صوتك هكذا ..

- أترين أن الأمر لا يستحق أن أنفعل ؟ لقد عدت إلى المنزل لأجد الطفلة جالسة فى الشرفة وهى ترتجف من شدة البرد والخوف .. ومن يدرى ما الذى كان يمكن أن تفعله طفلة لا يتجاوز عمرها أربع سنوات وهى بمفردها فى المنزل هكذا ؟

قالت له بلا مبالاة وهى تستعد للذهاب إلى الفراش :

- الحمد لله لم يحدث شىء ..

احتقن وجهه من شدة الغضب قائلاً :

- إننى لا أدرى أى أم .. وأى زوجة أنت ؟

قالت له متحدية :

- لقد تزوجتنى وأنت تعرف أننى أحب الخروج والسهرات .. فلا داعى لكل هذا الجدال الذى تثيره من آن لآخر ..

نظر إليها باستياء قائلاً :

- كانت غلطة كبيرة أننى تزوجتك ..

قالت له بسخرية :

- حقًا ؟ إن هذه الغلطة التى تتحدث عنها هى التى أوصلتك إلى ما أنت فيه الآن .. ولولا المساعدة التى قدمها لك أبى ما كان أحد سيدعوك لحضور مثل هذه المؤتمرات العلمية التى تذهب إليها ، وتقتنى منزلاً أنيقًا مثل هذا الذى تعيش فيه الآن .. أتظن أننى لا أعرف لماذا تزوجتنى ؟ إننى واثقة أنك لم تحبنى يومًا ما .. وأنك تزوجتنى فقط

لتحقيق أهدافك .. أنت مجرد شخص وصولى وانتهازى ..

انفعل قائلاً بغضب :

ـ اخرسى .. إن ما وصلت إليه تحقق بفضل مجهودى وعلمى .. وما أنا فيه الآن .. كنت سأحققه سواء بمساعدة أبيك أو بدونها ..

قالت وهى مستمرة فى سخريتها :

ـ حقًا ! هل تريد منى أن أصدق هذا ؟

قال دون أن يتمكن من التحكم فى انفعاله :

ـ لا يهمنى إن كنت تصدقين أم لا تصدقين .. لكن يجب أن تعرفى أننى إذا كنت قد تزوجتك .. فلأن أباك هو الذى طلب منى ذلك .. ولأننى أقدره وأحترمه وأدين له بالكثير من الفضل ، ووافقت على تحقيق طلبه برغم أننى لم أخطط لذلك قط .. ثم لا تنسى أنك أنت أيضًا ضغطت علىّ بمشاعر الحب التى حاصرتنى بها برغم معرفتك بأننى مرتبط بفتاة سواك ..

ـ هل أنت نادم ؟

ـ لم تعد هناك فائدة من الندم الآن ..

ـ هذا يؤكد ما قلته من أنك لم تحبنى ..

ـ إنك لم تساعدينى على أن أحبك .. فمنذ أن تزوجنا وأنت تفعلين كل ما يتعارض مع ذلك ..

ـ لكنك مازلت تحبها .. أليس كذلك ؟

ـ لا تقحميها فى الأمر الذى نحن بصدده الآن ..

ـ لست أنا .. بل أنت الذى أقحمتها فى حياتنا منذ أن تزوجنا .. لأنك لم تنسها قط ..

على أية حال .. كان يمكن لهذا الأمر أن يثير غضبى وانفعالى من قبل .. أما الآن فلم يعد يهمنى .. لأننى أنا أيضًا لم أعد أحبك .. وأصبحت أشعر بالضجر من حياتى معك ..

حمل إحدى الوسائد وبطانية فى يده قائلاً :

ـ سأذهب لأنام فى الحجرة المجاورة ..

لكنها استوقفته قائلة :

- انتظر .. قبل أن ترحل يجب أن تعرف أننى أريد الطلاق ..

نظر إليها بدهشة تمتزج بالغضب قائلاً :

- ما هذا الذى تقولينه ؟

- أظن أنك سمعت ما قلته جيدًا ..

- أنت بالتأكيد مجنونة ..

- بل أنا عاقلة تمامًا .. لكنى أعترف أننى ملول .. وقد مللتك .. ولا أريد أن أواصل الحياة معك ..

- هذا نفس شعورى .. ولولا الطفلة ...

قاطعته قائلة بتصميم :

- يمكنك أن تحتفظ بالطفلة لو أردت ..

نظر إليها باستغراب قائلاً :

إلى هذا الحد يمكنك أن تضحى بابنتك ؟

قالت له دون أن تتخلى عن إصرارها :

- على أية حال .. إننى سأستطيع أن أراها وقتما أشاء .. كما إننى واثقة أنك سترعاها جيدًا .. ربما على نحو أفضل منى ..

- إذن .. فأنت قد عقدت العزم على هذا الأمر ..

- نعم .. وكنت أنوى أن أحدثك بشأنه بعد فترة من عودتك من السفر ،لكن ما دام الأمر قد أثير الآن .. فمن الأفضل أن تكون الأمور واضحة ومحددة ..

- سوف أتحدث مع الدكتور (نافع) أولاً فى هذا الشأن ..

- لا تحمل هم أبى .. سأشرح له الأمر وأجعله يفهم أننى أنا التى طلبت منك الطلاق وأصررت عليه ..

- حاولى أن تمنحى نفسك وقتًا للتفكير ..

- لقد فكرت .. وهناك شىء يجب أن أصارحك به .. إننى أحب شخصًا آخر وسوف نتزوج بعد طلاقى منك !

حدق فى وجهها وقد وقع عليه هذا الخبر وقع الصاعقة .. فلم يملك إلا نظرات الازدراء والاحتقار التى سبقت مشاعر الغضب لكرامته ..

وما لبث أن ألقى بما بين يديه ، وهو يجذبها نحوه لينهال على وجهها بصفعة قوية ، أطاحت بها على السرير قائلاً :

ـ سافلة .. حقيرة .. أنت طالق !

* * *

١٠ ـ عودة الغائب ..

أنهت (ميرفت) بيع الخمسة قراريط التى ورثتها عن أبيها إلى أحد الأشخاص بالبلدة ، بعد أن أصبح دخلها غير كاف لتلبية احتياجاتها المعيشية .. وقررت أن تستغل المبلغ الذى أخذته ثمنا لبيع الأرض فى شراء آلتين للخياطة تستخدمهما هى وإحدى فتيات القرية ، فى حياكة بعض الثياب وبيعها للفتيات والسيدات .. حتى إذا نجح الأمر توسعت فى المشروع .. خاصة أن المنزل خال عليها .. ويمكن استغلال إحدى حجراته فى هذا الأمر .. كما أن ذلك سيخفف من شعورها بالوحدة .. ويشغل وقتها المزدحم بالذكريات الأليمة .. والتى تساعدها وحدتها على اجترارها ..

وبعد ثلاثة أيام من حصولها على ثمن بيع إرثها

الصغير .. غادرت المنزل وقد تأهبت للذهاب إلى المدينة لشراء الماكينات التى عقدت العزم على شرائها .. كما قررت أن تمر فى الطريق على الفتاة التى اختارتها لمساعدتها لتصحبها معها فى أثناء الشراء ..

لكن بينما كانت فى طريقها إلى منزل الفتاة .. توقفت فجأة وقد تسمرت قدماها على الأرض .. واتسعت حدقتاها بشدة .. وهى لا تصدق ما تراه عيناها .. وظنت أنها تحلم فأغمضت عينيها .. وعادت لتنظر مرة أخرى فى اتجاه الشخص الذى يقف أمامها على مسافة أمتار قليلة .. ووجدت نفسها تهتف بصوت هامس ودون وعى منها قائلة :

- (عماد) !

ظلت واقفة فى مكانها وقد عجزت قدماها عن الحركة ، فى حين انعقد لسانها عن الكلام بعد أن همست باسمه .. فقد هزتها المفاجأة بعنف ..

اقترب منها قائلاً :

- لقد افتقدتك كثيرًا يا (ميرفت) ..

ظلت صامتة وهى جامدة مكانها وقد استطرد قائلاً :

- انقضى وقت طويل منذ أن افترقنا .. لقد كنت فى طريقى إلى منزلك برغم خشيتى من ألا أكون موضع ترحيب بالنسبة لك .. لكن كان لابد لى أن أراك ..

ازداد اقترابًا منها دون أن تتحرك من مكانها وهمس لها قائلاً :

- (ميرفت) .. ألا تقولين شيئًا ؟

وأخيرًا خرجت الكلمات من حلقها بصعوبة وهى تقول له :

- ماذا تريد أن أقول ؟

- أى شىء .. حتى لو قلت إنك تكرهيننى .. وإنك لم تعودى راغبة فى رؤيتى ..

قالت له بصوت متهدج :

- هذا ما تمنيته .. لكنني لم أستطع .. ولا أظن أنني أستطيع أن أكذب عليك أو على مشاعري بالرغم من كل شيء ..

تأملها قائلاً :

- دعيني أنظر إليك .. إنك مازلت جميلة كالملائكة -

اكتست ابتسامتها بمسحة من الحزن قائلة :

- أنت الآن الذي تكذب .. فالسنوات الماضية .. كانت بالنسبة لي سنوات مضاعفة أضافت إلى عمري الكثير بما يزيد على سني الحقيقية .. وأخذت الكثير من هذا الجمال الذي تتحدث عنه ..

ظل يتأملها قائلاً :

- لكني أرى عكس ذلك ..

- على أية حال .. أشكرك .. وحمداً لله على سلامتك ..

نظر إلى (دبلة) الخطبة في إصبعها قائلاً :

- هل هذه هي نفس (الدبلة) التي وضعتها في إصبعك أم أنها تحمل اسم شخص آخر ؟

نزعتها من أصبعها لتريه إياها قائلة :

- ماذا ترى ؟

أحس بالتأثر لدى رؤيته لاسمه على الدبلة قائلاً :

- إذن ما زلت تحتفظين بها ؟

- ما كان يمكنني أن أتخلى عنها..

- هل يعني هذا أنك لم ترتبطي بشخص آخر .. برغم ما أخبرتك به في خطابي الأخير ؟

نظرت إليه قائلة :

- كان يتعين عليك أن تعرف أنه لن يدخل في حياتي شخص آخر بعدك ، حتى لو كنت أنت قد ألقيت بكل ما بيننا وراء ظهرك ..

قال وفي عينيه مزيج من الحزن والأسف :

- لقد أخطأت في حقك .. وأنا نادم ..

لكنها رفعت يدها لتلم شفتيه لتمنعه من الاسترسال في الكلام قائلة :

ـ لم يعد هناك داع لأن تقول شيئًا آخر .. فقد أفصحت عن كل ما أردت أن تقوله في خطابك الأخير ..

ـ ما زال لدى ما أريد أن أقوله لك ..

ـ أكثر مما قلت ـ

قال لها بلهجة متوسلة :

ـ (ميرفت) .. أرجو أن تفسحى لى صدرك .. إننى ما زلت بحاجة إليك .. وأريد أن تسمعينى وبعدها قررى ما تشائين .. لكنى لن أستطيع التحدث معك هنا .. أريد أن أقابلك فى مكان ما بعيدًا عن البلدة .. لأطلعك على أشياء كثيرة .. حدثت فى حياتى بعد خطابى الأخير .. وأنا واثق أن قلبك الكبير لن يخيب رجائى ..

نظرت إليه مترددة .. لكنه أسكت ترددها بإلحاحه قائلاً :

ـ أرجوك يا (ميرفت) .. أرجوك لا ترفضى مقابلتى .. فأنا فى أمس الحاجة إليك ..

وتلاقيا فى مكان ما بعيدًا عن البلدة .. حيث تحدث إليها قائلاً :

ـ لقد زرت قبر جدى وأبى بمجرد عودتى إلى البلدة ..

قالت له بصوت خافت :

ـ كان جدك يتمنى أن يراك قبل موته بالرغم من تظاهره بعكس ذلك ..

خفض بصره قائلاً :

ـ لقد أحزننى أنه مات وهو ناقم على .. وأننى لم أحضر جنازته ..

ـ أنا واثقة أنه قد غفر لك ما فعلته ..

نظر إليها قائلاً :

ـ وهل غفرت لى أنت أيضًا ؟

تنهدت قائلة :

ـ فلنطلب جميعًا الغفران من الله ..

- لقد نسيت أن أعزيك فى وفاة والدتك .. رحمها الله ..

تنهدت (ميرفت) بدورها قائلة :

- أتمنى من الله أن تكون هى الأخرى قد ماتت غير ناقمة علىّ ..

- ولماذا تنقم عليكِ ؟

- كانت تتمنى أن أحقق لها أمنيتها بأن تطمئن علىّ وعلى زواجى واستقرارى مع شخص ما قبل وفاتها .. لكن لم أستطع أن أحقق لها هذه الأمنية ، ورفضت كل توسلاتها فى هذا الشأن ..

ارتسمت كل ملامح الأسف على وجهه قائلاً :

- أنا المسئول عن ذلك أيضًا ..

- كلنا مسئولون بشكل أو بآخر .. ما الذى كنت تريد أن تحدثنى بشأنه ؟

- لقد انفصلت عن زوجتى منذ شهرين تقريبًا ..

- وهل تظن أن هذا الأمر يعنينى فى شىء ؟

- أرجوك يا (ميرفت) .. لا تدعى كبرياءك يتحدث الآن .. اسمعينى حتى النهاية ..

صمتت وهى تصغى إليه ، فى حين كانت عيناها ترقبه بنظرات مختلسة .. وكأنها تحاول أن تعوض حرمانها من رؤيته كل هذه السنين التى ابتعد فيها عنها ..

واستطرد قائلاً :

- لقد كان زواجى السابق فاشلاً بكل معنى الكلمة .. وعانيت بسببه الكثير على المستوى الأسرى ..

أعترف أننى وافقت على هذا الزواج لأسباب نفعية .. وشخصية كنت أمر بها .. لكننى لم أستطع أن أحب زوجتى .. وكانت حياتى معها جحيمًا لا يطاق .. فقد كانت امرأة مستهترة .. لا تعرف معنى لقدسية الزواج وما يرتبه من حقوق والتزامات .. فضلاً عن أنها لم تكن مخلصة ومسئولة بالقدر الذى يفرضه عليها كونها زوجة وأمًا .. لذا كان الانفصال بيننا أمرًا حتميًا ..

المشكلة أن لدى طفلة منها .. هذه الطفلة هى الشىء الوحيد الذى يستحق أن أحافظ عليه من تلك الزيجة الفاشلة .. وقد تنازلت لى عن الطفلة .. أو بمعنى أدق هربت من مسئوليتها تجاهها ، وتخلت عن مشاعر الأمومة التى لم تمارسها بصورة فعلية منذ أن أنجبتها .. لتتحرر من أى أعباء قبل زواجها الجديد المرتقب ..

سألته (ميرفت) باهتمام قائلة :

ـ وماذا ستفعل بشأن ابنتك ؟

ـ هذا هو ما يقلقنى .. فأنا أقضى أوقاتًا طويلة خارج المنزل .. ولدىّ مسئوليات جسيمة .. وأضطر أحيانًا إلى السفر كثيرًا من أجل المشاركة فى بعض المؤتمرات والمراكز البحثية العلمية .. سواء فى الولايات المتحدة أو خارجها .. وهذا سيؤثر فى قيامى بواجبى على الوجه الأكمل تجاه رعاية ابنتى .. كما أننى لا أريد أن أعهد بها إلى جليسات أطفال أو مربيات .. لأننى لا أثق بأنهنّ سيقمن برعايتها على الوجه الأمثل ..

ولا أحب أن أسجنها داخل مدرسة داخلية لتنشأ فى ظل مفاهيم ومعتقدات غريبة ومختلفة عن التقاليد التى تربينا عليها ونشأنا فيها ..

ـ إننى أقدر قلقك بهذا الشأن ..

ـ يمكنك أن تساعدينى فى حل هذه المشكلة ..

نظرت إليه بدهشة قائلة :

ـ أنا ؟

أجابها قائلاً :

ـ نعم ..

ـ كيف ؟

ـ بأن نتزوج !

* * *

١٠ـ حلمى الحقيقى ..

نظرت إليه باستغراب قائلة :

ـ نتزوج !

قال (عماد) :

ـ نعم .. لابد من إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح .. أنا لم أحب أحدًا سواك يا (ميرفت) .. كما أننى لن أجد من هى أفضل منك لتربية ابنتى ومادمت لم تتزوجى بعد ...

قاطعته قائلة :

ـ أنت لا تحب أحدًا سوى نفسك يا (عماد) .. وطلبك للزواج منى الآن لا يعنى سوى أنك بحاجة لمربية تأتمنها على تربية ابنتك .. وقد وجدت أننى أنسب واحدة لذلك فى ظل الظروف الحالية ..

ـ لا تظلمينى يا (ميرفت) .. ربما أكون قد أخطأت فى حقك كثيرًا .. لكننى لم أتوقف عن حبك قط وأنت تعلمين هذا ..

قالت له ساخرة :

ـ يا لها من معادلة غريبة ! تعترف بأنك قد أخطأت فى حقى .. كما أنك لم تتوقف قط عن حبك لى .. وتسألنى ألا أظلمك .. إذن بماذا تصف ما فعلته بى إن لم يكن هو الظلم بعينه ؟

ـ لننس الماضى ونفتح معًا صفحة جديدة ..

ـ إن جراح الماضى لم تندمل .. وصفحاتى معك كلها تمزقت ..

ـ لكنك قلت إنك مازلت تحبيننى .. بالرغم من كل شىء ..

ـ لا أنكر إننى ما زلت أحبك .. لكننى لا أستطيع أن أسامحك ..

ـ من يحب يتسامح ..

ـ لقد سامحت كثيرًا من قبل وتحملت كثيرًا من قبل ..

ـ أرجوك يا (ميرفت) .. لا تغلبى مشاعر المرارة والكبرياء الآن .. حاولى أن تتخلصى منها .. وأن تفكرى بمشاعر الحب فقط .. فكرى فى الأحلام التى حلمنا بها معًا .. والحب الكبير الذى جمع بيننا ..

قالت له بسخرية :

ـ لقد أضعت هذه الأحلام .. وضحيت بهذا الحب الكبير من أجل تطلعاتك .. والآن عدت لتفكر فىّ بعد أن اضطرتك الظروف لذلك ..

قال لها بيأس :

ـ إذن .. هل ستتخلين عنى ؟

قالت له وفى عينيها عاطفة صادقة :

ـ كلا .. لا أستطيع أن أفعل ذلك .. لأننى لست مثلك .. لم أفعل ذلك من قبل .. ولن أفعله الآن ـ

انفرجت أساريره قائلاً :

ـ إذن ...

قاطعته قائلة قبل أن يكمل عبارته :

ـ إننى لم أعد أفكر فى أمر الزواج .. منك أو من غيرك .. فقد طرحت هذا الموضوع من حياتى .. لكنى مستعدة لتربية ابنتك وتبنيها حتى تستقر الأمور بالنسبة لك ..

يمكنك أن تحضرها لتقيم معى .. وأنا أعدك بأننى سأتولاها بالعناية والرعاية كما لو كانت ابنتى تماماً ..

ابتسم قائلاً :

ـ إننى واثق من ذلك .. ولقد أحضرتها معى إلى مصر بالفعل .. وسوف أحضرها لك غداً لو شئت .. كما أننى مستعد للتكفل بجميع مصاريفها ودفع أى مبلغ تحددينه ..

سألته قائلة :

ـ ما اسم ابنتك ؟

ـ (منى) ..

ـ وما عمرها ؟

ـ أربع سنوات ..

ـ لو أردت أن تحضرها إلى منزلى الليلة فسوف أكون مستعدة لاستقبالها ..

نظر إليها بامتنان قائلاً :

ـ أشكرك .. أشكرك من كل قلبى يا (ميرفت) .. إننى أستطيع أن أطمئن على ابنتى الآن .. فلن أجد من هى أفضل منك لتربيتها .. فقد تمنيت دائمًا ومنذ ولادتها أن تكون مثلك حينما تكبر ..

ـ أظن أن مشكلتك قد حلت الآن ـ وتستطيع أن تعود إلى عملك دون أن تقلق بشأن ابنتك ..

ـ لقد حللت مشكلة ابنتى .. لكنى لم أحل مشكلتى أنا بعد ..

ـ ماذا تقصد ؟

ـ إذا كنت قد اطمأننت على (منى) لوجودها فى رعايتك .. فإننى أيضًا بحاجة إلى هذه الرعاية .. بحاجة إلى الحب الذى فقدته .. والزوجية التى تمنيتها ..

ـ هل سنعود إلى هذا الأمر مرة أخرى ؟ لقد أوضحت لك موقفى بهذا الشأن ..

ـ وأنا لن أستسلم لهذا الموقف .. لأننى متمسك أيضًا بموقفى من الزواج منك ..

وفى اليوم التالى توجه (عماد) ومعه ابنته إلى منزل (ميرفت) .. وقد تطلعت الطفلة إليها بفضول بينما استقبلتها (ميرفت) بابتسامة واسعة قائلة :

ـ هل هذه هى ابنتك ؟

ـ نعم ..

ـ إنها تشبهك كثيرًا ..

همس (عماد) قائلاً :

ـ كان من الممكن أن تكون ابنتك ..

قالت (ميرفت) وقد تحركت عاطفتها تجاه الطفلة من الوهلة الأولى :

ـ المهم .. أنها تشبهك أنت .. وهذا يعنى أننى سأحتفظ بجزء منك معى هنا سواء عدت أم لم تعد ..

- سأعود يا (ميرفت) .. أقسم لك إننى سأعود .. سأعود من أجلك ، ومن أجل ابنتى ، ومن أجل ما اتفقنا عليه من قبل ..

فتحت (ميرفت) ذراعيها لتحتضن الطفلة وتقبلها قائلة :

- ما اسمك يا حبيبتى ؟

استكانت الطفلة بين ذراعيها قائلة :

- اسمى (منى) .. وأنت ؟

ابتسمت (ميرفت) وهى تضمها إليها بحنان قائلة :

- وأنا اسمى (ميرفت) .. وستنادينني منذ اليوم ماما (ميرفت) ..

أحست الطفلة بتجاوب عاطفى تجاه (ميرفت) .. وقالت :

- هل سأقيم معك هنا ؟

قبلتها (ميرفت) قائلة :

- نعم يا حبيبتى .. وسأنفذ لك كل ما تريدينه .. وأحضر لك كل ما ترغبينه من لعب ..

قالت الطفلة ببراءة :

- وهل سنلعب معًا ؟

ضحكت (ميرفت) قائلة :

- بالطبع يا حبيبتى .. سنلعب معًا .. إننى أعرف الكثير من القصص التى ستعجبك أيضًا ..

- إن ماما لم تكن ترضى أن تلعب معى أو تحكى لى قصصًا مسلية ..

احتضنتها (ميرفت) بمرارة قائلة :

- يا حبيبتى ..

شعر (عماد) بارتياح لهذا التآلف السريع الذى حدث بين ابنته و(ميرفت) .. مما زاد من طمأنينته على وجودها معها ..

التفت (عماد) إلى (ميرفت) قائلاً :

- إننى مضطر إلى السفر الآن يا (ميرفت) .. سأذهب إلى القاهرة لأستقل الطائرة المسافرة إلى أمريكا اليوم ..

نظرت (ميرفت) إليه باضطراب قائلة :

- بهذه السرعة ؟

- الظروف تحتم ذلك ..

أسرعت ابنته إليه لتلف ذراعيها الصغيرتين حول ساقيه قائلة :

- إننى لا أريد أن ترحل وتتركنى بمفردى يا أبى ..

جثا على ركبتيه وهو يتناول يديها الصغيرتين بين يديه ليقبلهما قائلاً :

- لم نتفق على كل شيء يا حبيبتى قبل أن نأتى إلى هنا؟

نظرت إليه ابنته بعينين حزينتين قائلة :

- لكننى أريدك معى ..

- لن أغيب عنك طويلاً يا صغيرتى .. سأنهى بعض الأعمال وأعود إليك ..

وحتى أعود أريد منك أن تحبى ماما (ميرفت) وتسمعى كلامها ..

ابتسمت (ميرفت) وهى تنظر إليها قائلة :

- إنها ستحبنى كما أحببتها .. أليس كذلك يا (منى)؟

عادت الابتسامة الجميلة إلى وجه الطفلة وهى تقول لها :

- نعم .. إننى أحبك يا ماما (ميرفت) .. لأنك ستلعبين معى وتروين لى قصصاً كثيرة ..

احتوتها (ميرفت) بين ذراعيها وهى ترفعها إلى صدرها قائلة :

- يا حبيبتى ..

وتساءلت بينها وبين نفسها قائلة :

- كيف تفرط أم فى ابنة كهذه ؟

مد إليها (عماد) ذراعيه قائلاً :

ـ والآن .. ألا تعطين قبلة لبابا قبل أن يرحل ؟

احتضنته الطفلة وهى تقبله ، بينما غلب عليه التأثر وهو يضمها إليه بشدة قائلاً :

ـ ستوحشينني كثيرًا يا حبيبتى ..

وأنزلها إلى الأرض قائلاً :

ـ لا أظن أننى بحاجة لكى أوصيك بها يا (ميرفت) ..

قالت (ميرفت) وقد غلب عليها التأثر بدورها :

ـ كيف توصينى بابنتك ؟ لقد صارت منذ اليوم ابنتى .. وسأكون لها أكثر من أم ..

واصطحبته إلى خارج المنزل قائلة :

ـ هل ستغيب عنا كثيرًا ؟

ـ شهرين على الأكثر .. سأنهى كافة الإجراءات المتعلقة بالطلاق .. وبعض الأعمال المتعلقة بى ـ ثم أعود لننفذ ما اتفقنا عليه ..

قالت له وهى تشفق على نفسها من مزيد من الانتظار والتعلق بالأمل :

ـ لا داعى لمزيد من الوعود يا (عماد) .. يكفينى وجود (منى) معى .. فهذا يعنى أننى أحتفظ معى بجزء منك ..

قال لها وقد تدفقت مشاعر الحب من عينيه :

ـ لا يا (ميرفت) .. صدقينى .. أنا أيضًا بحاجة إليك .. ولم أعد أحتمل الابتعاد عنك أكثر من ذلك .. سأعود بعد شهرين .. وسنتزوج ..

قالت له بدلال وقد عاودتها الأمانى من جديد :

ـ لكنى لن أرحل معك إلى أمريكا ..

احتضنت يده بيدها قائلاً :

ـ كما تريدين يا حبيبتى .. إننى مستعد لتصفية كل أعمالى فى (أمريكا) .. والاستقرار فى مصر .. فقد نلت كفايتى من الحلم الأمريكى .. وأنا أريد العودة الآن إلى حلمى الحقيقى ..

* * *

١٢ـ عاطفة.. وأمومة..

انقضى شهر ونصف منذ سفر (عماد) إلى أمريكا، حيث قام خلاله باتخاذ الإجراءات اللازمة بشأن طلاقه من (نورا)، وتسوية كافة المتعلقات الخاصة بهذا الطلاق ـ

وذلك برغم معارضة الأب ومحاولته الحيلولة دونه..

كذلك بدأ (عماد) إجراء الترتيبات الخاصة بتصفية أعماله فى (أمريكا) والعودة إلى مصر.. بعد أن تلقى أكثر من عرض مغر من الجامعة والجهات العلمية المصرية ترحب بانضمامه لها..

أما (ميرفت).. فقد تراجعت عن إتمام المشروع الذى كانت تنوى تنفيذه وإقامة مشغل للحياكة؛ كى تتفرغ لرعاية الطفلة وتربيتها..

وقد نشأت علاقة قوية وعاطفة حميمة بينها وبين ابنة (عماد) خلال هذه الفترة التى عاشتاها معًا..

ووفرت لها من الحب والرعاية ما لم تستطع أمها الحقيقية أن تمنحها إياهما خلال السنوات الأربع التى عاشتها معها..

لقد أصبحت (منى) بالنسبة لها بمثابة ابنة حقيقية.. وغدت شديدة التعلق بها.. حتى إنها لم تعد تتصور حياتها بدونها..

كما أنها لم تعبأ بانتقادات أهل البلدة.. وأقاويلهم وهم يرونها تتكفل بتربية ابنة خطيبها السابق.. والذى هجرها ليتزوج من أخرى..

لم تكن بحاجة لأن تفسر أو تدافع عن نفسها.. كما أنها لم تحاول أن تتحدث عن اتفاقها الأخير مع (عماد).. ووعده لها مرة أخرى بالعودة والزواج..

إن كل ما كان يعنيها فى هذه المرحلة هو التزامها برعاية الطفلة الصغيرة..

وتلك العاطفة الجديدة التى نشأت بينهما.. والتى عوضتها عن مشاعر سابقة فقدتها من قبل.. وأشبعت

لديها غريزة أمومة مبكرة .. كانت كامنة فى نفسها ويحاجة فقط إلى من يحركها ويكشف عن أغوارها ..

إنها الآن لم تعد تهتم بأى شىء آخر غير العناية بهذه الطفلة ، وترقب عودة (عماد) لكى يضمها إليه ويصبحا أسرة واحدة .. فتكون بذلك قد حققت كل أحلامها .. ويكون القدر قد كافأها فى النهاية بسخاء على صبرها وحرمانها وانتظارها الطويل ..

* * *

دخل (عماد) إلى مكتب الدكتور (نافع) ثائرًا ، وقد أمسك بحافة المكتب قائلاً بانفعال :

- إننى أريد أن أعرف .. لماذا تعطل حصولى على المستندات الخاصة بأبحاثى الأخيرة .. وتصر على الاحتفاظ بها فى أدراج مكتبك ؟

- نظر إليه الدكتور (نافع) بهدوء قائلاً :

- إننى لا أعطل شيئًا بالنسبة لك .. لكن هناك بعض الإجراءات الروتينية التى يتعين اتخاذها قبل التصريح لك بالحصول على هذه المستندات ..

- أية إجراءات ؟ إن هذه الأبحاث هى نتيجة جهدى وخبرتى - ومن حقى أن أحصل على المستندات الرسمية التى تدل على ملكيتى لها ..

قال الدكتور (نافع) دون أن يتخلى عن هدوئه :

- هل يمكنك أن تجلس وتستعيد هدوءك أولاً لنتكلم معًا ؟

قال (عماد) على انفعاله :

- لن أهدأ ولن أجلس .. إننى أعرف أنه لا علاقة للإجراءات بتعطيل حصولى على هذه المستندات .. كما أننى كنت أعرف أنك ستعرقل حصولى عليها لإصرارك على أن أعود لابنتك .. وتتخذ هذه المستندات ورقة فى يدك تساومنى عليها .. لكن يجب أن تعرف أننى لن أعود إلى ابنتك بأى حال من الأحوال ، حتى لو جردتنى من الدكتوراه التى حصلت عليها ..

كفانى ما لقيته منها طوال فترة زواجنا .. لا أنكر أننى كنت مدينًا لك بالكثير منذ حضورى لأمريكا .. لكنى وفيت لك بهذا الدين حينما تزوجت من ابنتك .. ودفعت ثمنًا غاليًا من حياتى وأعصابى ومشاعرى مع امرأة لا أطيقها ولم أعرف معها معنى الحب ، إكرامًا لك ولابنتى التى لم تحاول حتى أن تكون جديرة بأمومتها لها ..

تراجع الدكتور (نافع) فى مقعده قائلاً :

ـ لا تتظاهر أمامى بالبراءه يا دكتور (عماد) .. فكلانا يفهم الآخر جيدًا .. لقد قبلت هذه الزيجة من أجل تحقيق طموحاتك قبل أى شىء آخر .. وأنا لم أضغط عليك من أجل الزواج من ابنتى .. فقط .. عددت لك المزايا التى يمكن أن تحصل عليها من وراء هذه الزيجة .. وكان دافعى إلى ذلك هو إعجابى بك وتقديرى لك .. وثقتى أنك الشخص الأمثل للزواج منها ، والذى يمكن أن آمنه عليها ..

ـ ولمحت لى من طرف آخر بالصعاب التى يمكن أن تعترضنى لو لم أوافق على هذا الزواج .. حتى لا أجد مفرًا من القبول ..

ـ هل تخدع نفسك أم تخدعنى ؟ إننى لست بالشخص الذى يعمد إلى اتخاذ هذه الوسائل الملتوية من أجل أن يزوج ابنته .. أخلاقى .. ومركزى .. ومبادئى تمنعنى من ذلك .. وإذا كنت قد أعجبت بسلوكك وأخلاقك وطموحك ، مما جعلنى أرغب فى أن تكون زوجًا لابنتى وأسعى وراء ذلك .. فهذا لا يعنى أننى كنت سأعمد إلى الضغط عليك أو وضع العراقيل فى طريقك من أجل إجبارك على ذلك .. كما أنك كنت تستطيع أن تصل إلى ما وصلت إليه الآن بمجهودك ، وبتحمل الصعاب التى تعترض طريق كل شخص مجد وطموح يريد أن يحقق طموحاته فى مجتمع جديد .. المنافسة فيه قوية وشديدة القسوة .. لكن الأمر كان سيحتاج منك إلى

وقت طويل وكفاح أكبر .. فأردت أن تختصر الطريق .. ووجدت فى زواجك من (نورا) الوسيلة إلى ذلك .. هل تستطيع أن تنكر ذلك ؟

صمت (عماد) وهو يتهالك فوق المقعد المواجه لمكتب الدكتور (نافع) ..

ثم ما لبث أن قال :

ـ أعترف أن هذا كان دافعى فى البداية .. كما أننى حاولت بالفعل بدء حياة جديدة والحفاظ على هذا الزواج ونجاحه .. لكن (نورا) لم تساعدنى على ذلك .. وبالرغم من ذلك تحملت من أجل ابنتنا .. لكنك تعرف جيدًا أنها لم تحاول حتى أن تكون أمًا ناجحة .. لذا كان لابد أن ننفصل ..

ـ على أية حال .. هأنتما ذان قد انفصلتما بالفعل .. برغم أننى كنت آمل ألا يحدث ذلك .. لو أستطيع إصلاح الأمر على الأقل ..

لكن من الواضح أن هذا الأمر أصبح مستحيلاً .. وأنا لا ألومك .. ولا أعفى ابنتى من المسئولية .. بل لعلك تعرف أننى قطعت صلتى بها بعد ما رأيته من استهتارها وجموحها ..

كنت أتمنى أن تستطيع أنت الحد من هذا الجموح بعد أن عجزت أنا عن ذلك .. لكن يبدو أن اللجام قد أفلت من أيدينا نحن الاثنين .. المهم بالنسبة لى الآن هو الطفلة .. حفيدتى ..

ـ لقد تركتها فى مصر كما تعلم .. بعد أن تخلت عنها أمها بكامل إرادتها .. وسوف أعود إليها قريبًا ..

ـ لكنى جدها .. وأنا مستعد لتحمل مسئولية تربيتها إذا لم تكن قادرًا على ذلك ..

قال (عماد) بلهجة ساخرة :

ـ كما ربيت أمها من قبل .. أم أنك ستعهد بها إلى المربيات والمدارس الداخلية ؟

دعنا لا نخدع أنفسنا يا دكتور (نافع) .. فالأشخاص الذين على شاكلتنا لا يستطيعون أن يتحملوا بمفردهم مسئولية تربية الأطفال .. كما أن أسلوب الحياة هنا لا يساعدك على التربية السليمة خاصة بالنسبة لابنة ستكون فى يوم من الأيام فتاة شابة ..

لقد عهدت بها لمن يستطيع أن يشاركنى تحمل هذه المسئولية .. ويمكنه أن يمنحها الحب والعطف والاهتمام الحقيقى ..

قال له بصوت ينم عن العاطفة :

- وهل سيمكننى أن أراها ؟

- بالطبع .. لكن فى مصر .. يمكنك أن تحضر وقتما تشاء .. وأن تقضى معها ما ترغب من وقت .. وكذلك سيكون الأمر بالنسبة لأمها بالرغم من تخليها عنها .. فأنا لن أحرمها من ذلك لو استيقظت لديها عاطفة الأمومة ..

- أشكرك يا بنى .. لقد أرحت قلبى الآن ..

- إذا أردت أن تشكرنى حقًّا .. ساعدنى فى الحصول على المستندات الخاصة بأبحاثى الأخيرة .. فأنت تعرف مدى أهميتها بالنسبة لى ..

- صدقنى يا بنى ، أنا لم أعمد إلى تعطيل حصولك على هذه المستندات .. فالأمر متعلق ببعض الإجراءات المتبعة هنا .. خاصة أن هذه الأبحاث أجريت داخل أحد المراكز الأمريكية المتخصصة .. وبمساعدات مالية وفرتها الحكومة .. وأنت تعرف أن الأمريكيين شديدو الحساسية بالنسبة لأسرارهم العلمية .. خاصة بالنسبة لمن لم يحصلوا على الجنسية الأمريكية بعد مثلك .. لكنى أعدك بأننى سأبذل كل جهدى من أجل تيسير حصولك على هذه المستندات ..

صافحه (عماد) وقد اختفت ملامح الانفعال التى ارتسمت على وجهه فى البداية ، لتحل محلها مشاعر التقدير السابقة التى يحملها تجاه أستاذه قائلاً :

- أشكرك يا أستاذى ..

* * *

شعر (عماد) ببعض التعب فى أثناء عمله فى أحد المراكز العلمية بإحدى الولايات الأمريكية، لتقديم بعض النتائج التى توصل إليها فى بحثه الأخير ..

وقد أحس بعض الذين جاءوا للاستماع والمشاهدة بذلك .. وكذلك مدير المركز الذى يرافقه .. والذى اقترب منه ليهمس فى أذنه قائلاً :

ـ إذا كنت تشعر بالتعب يمكننا تأجيل هذه المحاضرة لما بعد ..

لكن (عماد) تحامل على نفسه قائلاً :

ـ كلا .. إننى أستطيع مواصلة الشرح ..

لكن بعد لحظات قليلة من الشرح وإجراء التجارب .. ارتطم جسده فجأة وهوى على الأرض وسط ذهول من حوله ..

بينما صاح مدير المركز قائلاً :

ـ فليستدع أحدكم سيارة الإسعاف على الفور !

* * *

١٣ـ بعد الانتظار ..

مر عام منذ سفر (عماد) إلى أمريكا .. وقد انقطعت رسائله واتصالاته الهاتفية وتلاشت وعوده كعادته السابقة ..

بينما أيقنت (ميرفت) أنه يتعين عليها أن تتوقف عن الأمل فى التزامه بوعده لها هذه المرة أيضًا .. وأنه كان من الغباء أن تثق به بعد كل ما تراجع عنه من عهود سابقة .. وكل ما قدمه لها من أحلام وهمية ..

لقد اكتسبت مناعة ضد الصدمات بهذا الشأن .. برغم أنه جدد الحلم القديم ..

وكان يمكنها أن تكون أسعد حالاً بعد أن رضيت بالمصير الذى آل إليه هذا الحلم .. واستسلامها لفكرة ضياعه إلى الأبد .. لكنها لا تعرف لماذا سعى لتعذيبها على هذا النحو ؟ إنها لم تطالبه بأن يفى بأى شىء مما تعاهدا عليه بعد عودته المفاجئة ..

وإذا كان قد أراد منها أن تتولى رعاية ابنته وتربيتها ، فقد وافقت على ذلك عن طيب خاطر .. بل هي سعيدة به .. لأنها تحبه .. ولأنها أحبت ابنته بالفعل .. فلماذا لم يكتف بذلك ؟ لماذا لم يخبرها بأن كل ما يريده منها هو أن تقوم بدور المربية لابنته ـ لأنه لم يجد من هي أصلح منها ليأتمنها عليها ؟ لماذا عاد ليجدد المشاعر القديمة ويسرف في منح الوعود ؟ برغم أنها حاولت أن تحله من ذلك ..

كان يكفيها أنه وجد فيها الشخص الذي يثق براعيته لابنته بالرغم من كل ما حدث .. فهذا يعني بالنسبة لها أنه مازال يحمل لها بعض الإعزاز والتقدير والثقة .. لكنه أصر على أن يعذبها بالرجاء والأمل .. يؤلمها بحبها له .. إن ما يؤلمها الآن أكثر من أي شيء .. هو سؤال ابنته الدائم عنه ، وعن سبب عدم حضوره من أمريكا برغم وعده لها بالحضور بعد شهرين ..

فهذا سؤال لم تستطع أن تجيب عنه من قبل .. ولم تجد له إجابة حتى الآن .. إن كل ما علمته عنه هو أنه قد ترك المكان الذي يقيم فيه ، واختفى دون أن يستطيع أحد أن يستدل على عنوانه ..

ظنت في البداية أنه ربما يكون قد أصابه مكروه .. لكنها فوجئت بتحويل مبلغ مالي كبير من أحد البنوك الأمريكية إلى البنك المصري الذي اعتاد أن يتعامل معه ، وأن البنك قد أخطرها بإيداع هذا المبلغ في حسابها .. ثم تسلمت رسالة قصيرة لا تتجاوز بضعة أسطر أخبرها فيها أن هذا المبلغ من أجل الإنفاق على ابنته لمدة عام ـ وأنه سيرسل مبلغًا آخر بعد انقضاء العام ..

كان هذا بعد ثلاثة أشهر من سفره .. وبعدها لم يصلها أي خطاب آخر ..

لقد تساءلت وقتها .. عن سبب إرساله هذا المبلغ لتحمل نفقات ابنته لمدة عام .. ما دام قد وعد بالحضور

بعد شهرين .. خاصة وقد تجاوز هذه المدة وانقضى شهر ثالث دون حضوره ..

لكنها سرعان ما أدركت المغزى من وراء ذلك .. لقد قرر أن يكتفى بأن يعهد إليها برعاية ابنته ، وإرسال مبلغ كل سنة مقابل قيامها بهذا الدور .. لقد أراد أن يخدعها باسم الحب لكى يدفعها للقيام بدور المربية لابنته .. وكان يمكنه أن يكون صريحًا معها من البداية بدلاً من اللجوء للعبة الوعود المتكررة .. كان يمكنه على الأقل أن يترك لها إجابة تجيب بها عن أسئلة ابنته الدائمة عنه وعن سبب غيابه .. لكن (عماد) سيبقى هو (عماد) ..

على أية حال يتعين عليها أن تتوقف عن التفكير فى سبب غيابه وإخلاله بوعده لها .. ربما يكون قد تزوج من أخرى .. وربما أراد أن يتحرر من مسئوليته كأب تجاه ابنته كما فعلت أمها من قبل .. وأن يتفرغ لمجده العلمى ..

عليها ألا تعذب نفسها بالتساؤلات .. فقد تعذبت بما فيه الكفاية من قبل .. يجب أن تدفن حيرتها ومشاعرها القديمة بين أضلعها .. وأن تكتفى بمشاعرها الجديدة تجاه (منى) التى عوضتها بحبها ووجودها معها عن أبيها الذى هجرها ..

ومضت أربعة أشهر أخرى ..

وبينما كانت (ميرفت) منشغلة بإعداد الطعام للطفلة .. التى جلست تلعب مع قطتها الصغيرة أمام المنزل .. تنبهت على صوت الطفلة فجأة وهى تصيح قائلة :

- بابا .. لقد حضر أبى !

اضطربت (ميرفت) لدى سماعها ذلك .. وقد سقط الإناء الذى كانت تحمله من يدها مهشمًا على الأرض ..

وما لبثت أن اندفعت إلى الخارج لتتبين الأمر حيث وجدته واقفًا أمام الباب وهو يحمل ابنته بين ذراعيه ..

مرة أخرى تسمرت قدماها وهى تنظر إليه غير مصدقة .. وقد هتفت باسمه قائلة :

ـ (عماد) ؟!

ارتسمت ابتسامة باهتة على وجهه وهو ينظر إليها قائلاً :

ـ كيف حالك يا (ميرفت) ؟

قالت بوجوم وقد خلا وجهها من أى تعبير برغم اضطراب بمشاعرها :

ـ حمدًا لله على سلامتك ..

ثم أشارت له بالدخول قائلة :

ـ تفضل ..

ـ بدت لهجته جافة وخالية من الأحاسيس وهو يقول لها :

ـ أشكرك .. إننى لن أبقى طويلاً فى البلدة .. فأنا مضطر للسفر مرة أخرى غدًا .. ويجب أن أكون فى القاهرة بعد عدة ساعات ..

نظرت إليه وفى عينيها علامة استفهام .. وكأنها تريد أن تسأله .. لمَ جئت ؟ ولمَ هذا الجفاء ؟

لكنه أجاب عن تساؤلاتها بعد برهة من الصمت مرت بينهما قائلاً :

ـ لقد جئت لآخذ ابنتى ـ

ارتسمت ملامح الصدمة على وجهها وهى تسأله قائلة :

ـ تأخذها .. تأخذها إلى أين ؟

أنزل (عماد) الطفلة قائلاً لها :

ـ سأصحبها معى إلى أمريكا ..

نظرت إليه بغضب قائلة :

ـ هل هذا هو كل ما جئت من أجله بعد غياب عام ونصف ؟

ابتسم (عماد) لابنته قائلاً :

ـ انتظرينى هنا يا (منى) .. سأتحدث إلى ماما (ميرفت) ثم أعود إليك ..

قالت له الطفلة محتجة :

ـ إننى لا أريد أن أبعد عن ماما (ميرفت) .. أريد أن أبقى معها هنا ..

ـ ألا تحبين أن تسافرى مع بابا ؟

ـ أريد أن تبقى أنت أيضًا معنا هنا ..

صمت (عماد) دون أن يعقب على ذلك .. وقد أشار (لميرفت) لكى تسير معه بعيدًا عن الطفلة ..

وبعد أن اطمأن إلى أنه أصبح بعيدًا عنها بالقدر الكافى تحدث إلى (ميرفت) قائلاً :

ـ لقد تعرضت أمها لحادث سيارة .. وهى فى حالة حرجة .. وترغب فى رؤية ابنتها .. لقد أخبرنى والد زوجتى بذلك .. ورجانى أن أحضر الطفلة لتراها أمها ..

ـ إذن فهذا ما جعلك تأتى إلى هنا ؟

أشاح بوجهه إلى الجهة الأخرى متجاهلاً نظراتها وهو يقول بجفاء :

ـ نعم ..

ولما رآها وقد التزمت الصمت دون أن تحاول التعقيب بشىء .. تحدث قائلاً وهو يحاول البحث عن كلمات :

ـ (ميرفت) .. هناك ظروف .. اضطرتنى ...

قاطعته قائلة وهى تحاول أن توفر عليه البحث عن أعذار :

ـ إن من حق أمها أن تراها بالطبع .. خاصة وهى تمر بهذه الظروف .. لكن هل يعنى هذا أنها ستبقى فى أمريكا .. وأنك تنوى إبعادها عنى ؟

ـ لفترة مؤقتة فقط ..

ـ لقد أصبحت شديدة التعلق بهذه الطفلة .. أرجوك لا تحرمنى منها ..

ـ أعدك أن تعود إليك مرة أخرى ..

قالت وعيناها تكذبانه :

ـ أخشى أن يكون ذلك مثل وعودك السابقة ..

حاول أن يقول شيئًا ـ لكنه امتنع عن الكلام ..

ثم ما لبث أن قال لها :

ـ من فضلك .. أعدى الطفلة للذهاب معى ..

بكت (ميرفت) وهى تودع الطفلة .. التى نظرت لأبيها قائلة :

ـ لا أريد أن أذهب معك .. أريد أن أبقى معها ..

مسح (عماد) على شعر ابنته قائلاً :

ـ لقد قلت لك يا حبيبتى .. إنك ستعودين إليها ..

مسحت الفتاة بدورها العبرات التى انسابت بغزارة على وجنتى (ميرفت) قائلة :

ـ هل سمعت ما قاله بابا يا ماما (ميرفت)؟ إننى سأحضر لك سريعًا فلا تبكى ..

احتضنتها (ميرفت) قائلة :

ـ ستوحشيننى .. ستوحشيننى كثيرًا يا (منى) ..

استكانت الطفلة بين ذراعيها قائلة :

ـ وأنت أيضًا يا ماما ..

راقب (عماد) هذا المشهد بتأثر بالغ .. لكنه حاول إخفاء تأثره بالنظر فى الاتجاه المضاد ..

وما لبث أن أمسك بيد ابنته الصغيرة .. قائلاً لـ (ميرفت):

ـ لا أعرف كيف أشكرك على كل ما فعلته من أجل ابنتى .. إننى سأظل مدينًا لك بالكثير ..

أشارت له بيدها لكى يتوقف عن الكلام .. قائلة :

ـ إذا أردت أن تشكرنى حقًا .. لا تحرمنى من رؤية (منى) بعد أن أحببتها وتعلقت بها .. أنت الذى دفعتنى إلى هذا الحب .. وتلك العاطفة التى نشأت بيننا .. فلا تسلبنى إياها .. بعد أن سلبتنى حبك من قبل ..

إننى لم أعد أريد منك شيئا سوى أن تتركنى أتولى أمر تربية هذه الطفلة .. لأننى بحاجة إليها .. قدر احتياجها إلى .. إن وجودها معى .. قد عوضنى الكثير من الحرمان والإشباع العاطفى .. لذا أرجوك أن تفى بوعدك وتعيدها إلى دون أن تخذلنى هذه المرة ـ

هز رأسه قائلاً وقد بذل الكثير من الجهد لإخفاء تأثره :

ـ تأكدى أننى سأفعل ..

واصطحب ابنته إلى السيارة الواقفة أمام المنزل ـ لكن (ميرفت) عادت لتناديه بعينين مغرورقتين بالعبرات قائلة :

ـ (منى) ..

أفلتت الطفلة يدها من يد أبيها وهى تندفع عائدة إليها لتلقى بنفسها بين أحضان (ميرفت) التى لم تستطع أن تسيطر على مشاعرها وهى تتشبث بها قائلة بصوت متهدج :

ـ إننى أحبك .. أحبك كثيرًا ..

* * *

غادر الدكتور (نافع) حجرة ابنته بالمستشفى ، حيث كان (عماد) واقفًا بانتظاره فى الخارج .. وما لبث أن سأله بصوت هامس قائلاً :

ـ هل أحضرت الطفلة معك ؟

أجابه (عماد) قائلاً :

ـ نعم .. لقد تركتها فى الاستقبال ..

ـ إذن .. اذهب لتأتى بها ..

سأله (عماد) عن ابنته قائلاً :

ـ ما هى حالتها الآن ؟

أطرق الرجل برأسه قائلاً بنبرة حزينة :

ـ حالتها سيئة للغاية ..

ثم استطرد قائلاً وكأنه يحاول أن يطرد هذا الحزن عنه :

ـ هيا .. اذهب لتحضر لها ابنتها .. فقد لا تتاح لها الفرصة لرؤيتها مرة أخرى ..

لمسك الجد بيد الطفلة وهو يقترب بها من فراش الأم التي أحاطت بها الضمادات والأربطة ..

بينما وقف (عماد) في نهاية الحجرة يتطلع إليها وقد ارتسمت ملامح الأسى على وجهه ..

همس الدكتور (نافع) لابنته قائلاً :

ـ (نورا) .. لقد حضرت (منى) كما طلبت .. ها هي ذي قد جاءت لرؤيتك ..

نظرت إليها بطرف عينيها دون أن تقوى على تحريك ذراعها .. قائلة بصوت واهن :

ـ (منى) .. (منى) .. اقتربي مني يا حبيبتي .. لفي ذراعيك الصغيرتين حول رقبتي .. لأنني لا أستطيع أن أضمك إلي ..

ترددت الابنة في البداية وقد أثارت هذه الأربطة والضمادات الملتفة حول أمها رهبتها .. فالتفتت إلى أبيها وكأنها تحاول أن تستمد من وجوده الشجاعة لفعل ذلك .. فهز لها رأسه لكي تفعل ..

وما إن صعدت الابنة إلى فراش الأم لتحيط عنقها بذراعيها الصغيرتين البضتين ، حتى انسابت عبرات الأم قائلة :

ـ سامحيني يا بنيتي .. لم أكن أحب أن تريني هكذا .. لكني أشعر بأنني قد لا أتمكن من رؤيتك مرة أخرى .. أعرف أنني لم أكن أمًا صالحة .. لكنني أحببتك دائمًا .. وهذا ما أريد أن تتأكدي منه برغم كل ما حدث .. كما أريد منك ألا تكرهيني في المستقبل ..

قبلتها ابنتها بحنان وعاطفة غريزية قبل أن تتأهب لمغادرة الحجرة مع أبيها .. وقد استوقفته (نورا) قبل أن يذهب قائلة :

ـ (عماد) .. أريد منك أنت أيضًا أن تسامحني .. ها هو الله (سبحانه وتعالى) قد انتقم لك ولابنتك مني .. وكل ما أريده الآن هو ألا أرحل عن الدنيا دون أن أعرف أنك قد سامحتني .. وأنك لن تجعل ابنتي تحمل لي صورة سيئة في المستقبل ..

اقترب منها (عماد) قائلاً :

- لقد سامحتك يا (نورا) .. وابنتك لن تتذكرك إلا بكل حب وتقدير ..

غادر الحجرة وبصحبته ابنته تاركًا (نورا) وقد ارتسمت ابتسامة صافية على وجهها برغم العبرات التى كانت تترقرق فى عينيها ، وهى تقول لأبيها بصوت هادئ :

- الحمد لله .. الآن أستطيع أن أموت مستريحة ..

* * *

عاد (عماد) إلى البلدة ومعه (منى) حيث وقف من بعيد يرقب (ميرفت) التى كانت جالسة فى شرفة منزلها وهى تتطلع إلى الأفق الممتد أمامها بعينين شاردتين ..

لقد انقضى أسبوعان منذ أن سافرت (منى) بصحبة أبيها .. لم تعرف خلالها طعمًا للسعادة .. وقد بدا لها هذان الأسبوعان كما لو كانا عامين ..

لقد تركت (منى) فراغًا كبيرًا فى حياتها منذ أن رحلت .. إنه نفس الشعور الذى خلفه أبوها عندما رحل عنها من قبل .. وقد تضاعف هذه المرة إحساسها بالوحدة والحرمان العاطفى .. فأصبحت عازفة عن كل شىء .. حتى عن الطعام الذى لم تعد تتناوله إلا بالقدر الذى يبقيها على الحياة ..

تأملها (عماد) من مكانه بعينين تتدفقان حبًا وعاطفة .. قائلاً لنفسه :

- مسكينة يا (ميرفت) .. أرجو أن تقدرى وتغفرى لى فيما بعد ، عندما تعرفين الحقيقة ..

وما لبث أن همس لابنته وهو يسلمها حقيبتها قائلاً :

- هيا يا حبيبتى .. اذهبى الآن لتفاجئى ماما (ميرفت) بحضورك .. أنا واثق أنها ستفرح كثيرًا برؤيتك ..

سألته ابنته قائلة :

- ألن تأتى معى ؟

قال وهو يخفي عنها تأثره :

ـ نعم يا حبيبتي .. إنني مضطر للسفر الآن .. فقد تأخرت ويجب أن أذهب في الحال .. لكني سأعود لرؤيتك فيما بعد ..

هل ستغيب عني طويلاً كما فعلت من قبل ؟

رسم ابتسامة على وجهه وهو يمسح بيده على وجنتها قائلاً بحنان :

ـ كلا .. يا حبيبتي .. سوف أراكِ قريبًا جدًا ..

ثم قبلها في جبينها وهو يردف قائلاً :

ـ والآن .. هيا .. هيا لتذهبي إلى ماما (ميرفت) ..

راقبها وهي تبتعد وقد اكتسى وجهه بملامح الأسى قائلاً لنفسه :

ـ وأنت أيضًا مسكينة يا بنيتي .. فقد قدر لك أن تكوني يتيمة وأنت في هذه السن الصغيرة دون أب أو أم !

وشاهد (ميرفت) وهي تقفز من مكانها لدى رؤيتها (منى) وقد فتحت لها ذراعيها ، لتضمها إليها بسعادة وحب وحنان بالغ ، في حين تشبثت الابنة بها وهي تبادلها نفس المشاعر الفياضة .. فاستطرد قائلاً :

ـ لكن ما يخفف من شعوري بالحزن لأجلك .. هو أنني تركتك بين أيد أمينة لتعيشي في رعاية الفتاة الوحيدة التي أحببتها .. والتي أثق أنها ستعوضك عن الأم والأب الحقيقيين .. وأنها ستمنحك من الحب والحنان بقدر ما حرمت منه وما حرمنا منه نحن أيضًا في حياتنا ..

ثم أسرع بمغادرة المكان قبل أن تتنبه (ميرفت) لوجوده قائلاً :

ـ وداعًا يا أحب من عرفتهن في حياتي ..

* * *

انقضت خمسة أشهر أخرى منذ أن أحضر (عماد) ابنته لتبقى في رعاية (ميرفت) ، وذات يوم بينما كانت

(ميرفت) واقفة فى فناء منزلها الخلفى تنشر الغسيل ؛ التقت بإحدى جاراتها التى تطل شرفتها على الفناء مباشرة، وقد حيتها قائلة :

- صباح الخير يا (ميرفت) ..

ردت عليها (ميرفت) التحية :

- صباح الخير يا (مايسة) ..

هل ما سمعته صحيح ؟

- وما هو الذى سمعته ؟

- لقد علمت أن الدكتور (عماد) قد عاد إلى مصر .. وأنه فى طريقه إلى البلدة ..

اهتزت (ميرفت) لدى سماعها ذلك قائلة :

- الدكتور (عماد) ؟

- نعم .. لقد التقى به أخى أمس فى القاهرة بعد ساعات من عودته من أمريكا .. وقد أخبره أنه سيحضر إلى البلدة .. ويبدو أنه يرغب فى اصطحاب ابنته معه مرة أخرى إلى أمريكا لكى تستقر معه هناك نهائيًا ..

ارتسمت ملامح الاضطراب والفزع على وجه (ميرفت) لدى سماعها ذلك قائلة :

- كلا .. لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا .. إننى لن أسمح له بهذا ..

- لماذا ؟ من حقه أن يأخذ ابنته .. دعيه يأخذها .. لتتفرغى أنت لحياتك المقبلة .. فمن الظلم أن تحرمى نفسك من الزواج وممارسة حياتك الطبيعية، من أجل شخص أخلف وعوده معك .. ومن أجل تربية ابنته .. إنك لن تتركيه يواصل نجاحه، بينما أنت هنا متفرغة فقط لتربية ابنته ..

صاحت (ميرفت) بانفعال قائلة :

- اسكتى ! اسكتى ! أنت لا تعرفين شيئًا .. ما شأنك أنت بذلك ؟ ما شأنكم جميعًا بحياتى ما دمت قانعة بها ؟

واندفعت إلى الداخل تتبعها نظرات جارتها المستنكرة .. وهى تهمس قائلة :

- أنت حرة !

أسرعت (ميرفت) لتجمع حاجياتها وحاجيات (منى) وقد اعترتها حالة من الاضطراب والقلق .

بينما راقبتها (منى) قائلة :

ـ ماذا تفعلين يا ماما (ميرفت) ؟

ـ سنرحل عن هنا ؟

ـ إلى أين سنذهب ؟

ـ إلى الإسكندرية ؟

ـ وماذا لو حضر أبى ولم يجدنا ؟

قالت (ميرفت) وهى تسرع بإعداد الحقيبة :

ـ بابا لن يحضر الآن .. إننى أعرف ذلك .. ونحن لن نغيب طويلاً فى الإسكندرية وسنعود قريبًا إلى هنا ..

ـ وهل الإسكندرية بعيدة ؟

ـ كلا .. إنها قريبة .. ليست بعيدة مثل أمريكا ..

ـ إذن .. فلو حضر أبى يمكنه أن يأتى إلينا هناك ..

قالت (ميرفت) لنفسها بعد أن انتهت من تجهيز الحقيبة :

ـ أتمنى ألا يعرف مكاننا أبدًا ..

* * *

عاد (عماد) إلى البلدة ليبحث عن (ميرفت) وابنته .. لكنه وجدهما قد غادراها دون أن يعرف أحد إلى أين ذهبا ؟

وعندما سأل جارتها أخبرته بما دار بينهما من حديث .. فانفعل قائلاً :

ـ من قال إننى جئت لاصطحب ابنتى معى إلى أمريكا؟ من الذى روج هذه الإشاعة ؟

قالت له المرأة :

ـ هذا ما أخبرنى به شقيقى .

صاح قائلاً بحنق :

ـ إننى لم أقل شيئًا كهذا لشقيقك .. لقد جئت لأستقر فى مصر نهائيًا .. لكنكما أفسدتما كل شىء .. ليتنى لم ألتق بشقيقك هذا .. ترى أين يمكننى العثور عليهما الآن؟

حاول (عماد) أن يعرف المكان الذى ذهبا إليه دون جدوى .. فقرر أن يقضى يومين أو ثلاثة فى البلدة علهما يعودان إليها فى أثناء وجوده .. قبل أن يحاول البحث عنهما فى مكان آخر ..

ولكن بعد انقضاء يومين من إقامته فى البلدة .. حضر صديقه القديم (مصطفى) ليلتقى به .. وقد عاتبه قائلاً :

ـ أخيرًا .. التقينا بعد كل هذه السنين الطويلة أيها الصديق الجاحد ـ

قال (عماد) معتذرًا :

ـ أعذرنى يا (مصطفى) لقد باعدت بيننا ظروف الحياة ..

ـ ظروف الحياة تجعلك تنسى صديقك هكذا ؟

ـ إننى لم أنسك قط ..

ـ حقًا ؟ إذن لماذا انقطعت خطاباتك عنى ؟ ولماذا لم ترد على خطاباتى إليك ؟ إنك لم تفكر حتى فى المرتين أو الثلاث التى حضرت فيها إلى مصر أن تسأل عنى أو تحاول مقابلتى .. طبعًا .. لقد أصبحت الآن الدكتور (عماد) .. العالم الجيولجى الشهير .. ولم نعد نليق بصداقتك ..

ـ لا تقل هذا يا (مصطفى) .. لقد حالت أشياء كثيرة وقعت فى حياتى دون الوفاء بواجب الصداقة على النحو الأمثل .. لكن حتى فى المرات التى أتيت فيها إلى القاهرة كنت مشغولاً للغاية والوقت أمامى محدود ..

ـ على أية حال .. كان الله فى العون .. لعلك قد تخلصت من هذه الأعباء التى تشغلك الآن ..

ـ لم يعد هناك شىء يشغلنى الآن سوى العثور على ابنتى و(ميرفت) .. فقد عدت إلى البلدة من أجلهما لكنى وجدتهما قد غادراها دون أن يتركا أى أثر يدل على مكانهما ..

- لعلك قد جئت لاستعادة ابنتك ..

- نعم ..

سأله (مصطفى) :

- وماذا تريد من (ميرفت) ؟

أجابه وفي عينيه فيض من الشوق :

- أريد أن أستعيدها أيضًا ..

حدجه صديقه بنظرة ثاقبة قائلاً :

- كيف ؟

- لقد آن الأوان لكي نتزوج بعد كل هذه السنين التي ضاعت منا ..

قال (مصطفى) متهكمًا :

- هل ستكرر وعودك السابقة لها والتي لم تحقق منها شيئًا ؟

قال (عماد) بتصميم :

- إنني لم آت لأقدم وعودًا هذه المرة .. بل جئت عاقدًا العزم على تنفيذها ..

والتفت إلى صديقه الذي رأى في عينيه نظرة تشكك قائلاً :

- ألا تصدقني يا (مصطفى) ؟

- بودي أن أفعل ذلك .. لكن من كثرة ما قلته دون أن تفعله من قبل لم أعد قادرًا على التصديق ..

نظر (عماد) إلى صديقه وقد أمسك بذراعيه قائلاً :

- إنك تعرف مكانهما .. أليس كذلك ؟ إنني أشعر بأنك تعرف مكانهما ..

صمت (مصطفى) برهة قبل أن يتحدث قائلاً :

- بلى .. إنهما في منزلي بالإسكندرية .. لقد حضرا إليّ منذ يومين .. بعد أن عرفت (ميرفت) بأمر حضورك إلى مصر .. ورغبتك في استعادة ابنتك والعودة بها إلى أمريكا ..

لقد أصبحت (ميرفت) شديدة التعلق بابنتك الصغيرة..
وكان ابتعادها عنها لمدة أسبوعين عندما اصطحبتها معك فى المرة السابقة إلى أمريكا تجربة قاسية بالنسبة لها.. أشفقت على نفسها من أن تتكرر.. خاصة بعد أن علمت بأنك تنوى أخذ الطفلة بصفة نهائية..

كانت منفعلة للغاية.. مما حال دون إقناعها بأى شىء آخر، عدا الاحتفاظ بالطفلة معها.. لكنى كنت أعرف بالطبع.. أن هذا تصرف غير سليم.. وإن من حقك أن تطمئن على ابنتك وأن تصحبها معك لو أردت.. لذا أقنعتها بالبقاء فى منزلى مع الطفلة.. وذهبت للإقامة لدى أحد أصدقائى، بعد أن وعدتها بأننى لم أخبر أحدًا عن مكانها، وتدبير أمر إقامتها فى إحدى الشقق المفروشة فى الإسكندرية..

لكن بعد أن أمعنت التفكير.. قررت أن أحضر إلى البلدة، وأبحث عنك لإطلاعك على الأمر حتى تطمئن على ابنتك، لأن هذا من حقك كأب.. وأعرف منك ما الذى تنوى فعله..

ابتسم (عماد).. ابتسامة ارتياح قائلاً:

- هل أصبحت (ميرفت) مرتبطة بابنتى إلى هذا الحد؟

- إن ما رأيته يدل على أنها لم تعد تتصور الحياة بدونها..

قال (عماد) بلهفة:

- إذن.. هيا بنا.. لنذهب لهما على الفور..

هم (مصطفى) باصطحابه معه.. لكنه استوقفه فجأة قبل أن يتحركا من مكانهما قائلاً:

- انتظر.. هل تنوى الزواج من (ميرفت) وضمها هى وابنتك إليك هذه المرة حقًا؟

ابتسم (عماد) قائلاً:

- لك الحق فى أن ترتاب فى ذلك.. لكن صدقنى هذا ما أنوى أن أفعله.. وهذا ما جئت من أجله إلى مصر بالفعل، بعد أن صفيت كل أعمالى فى (أمريكا)..

هيا بنا لنذهب إليهما.. ولا نضيع الوقت.. سأشرح لك كل شىء فى الطريق..

- هيا بنا -

* * *

فوجئت (ميرفت) برؤيته أمامها فى الإسكندرية ..

حاولت أن تهرب وهى تنادى الطفلة باضطراب قائلة :

- (منى) .. (منى) .. أين ذهبت (منى) ؟

لكنه أمسك بذراعها ليستوقفها قائلاً :

- إنها فى انتظارنا الآن على شاطئ البحر مع (مصطفى) ..

قالت له بعينين باكيتين :

- أرجوك لا تأخذها منى هذه المرة .

- إننى لم آت لآخذها منك هذه المرة .. بل لأضمك وأضمها إلى ..

سنتزوج يا (ميرفت) .. وسنصبح أسرة واحدة .. لقد آن الأوان لنفعل ذلك ..

صاحت فى وجهه قائلة :

- كلا .. كفى .. لا أريد مزيدًا من الوعود والأمانى .. لم يعد يهمنى أن نتزوج الآن .. لم يعد يراودنى هذا الحلم .. إن ما يعنينى الآن هو ألا تأخذ ابنتى (منى) كما أخذت حلمى من قبل ..

- صدقينى يا (ميرفت) .. إننى لن أقدم لك وعودًا أو أمانى هذه المرة .. لقد جئت لأبقى .. ونعيش معًا تحت سقف واحد .. زوجًا وزوجة كما حلمنا من قبل ..

قالت له غير مصدقة :

- كما قلت لى آخر مرة ثم تجاهلت كل شىء ..

- لقد كنت صادقًا فيما قلته لك آخر مرة .. لكن بعد عودتى إلى أمريكا أصبت بمرض خطير .. أخبرنى وقتها الأطباء أن نسبة الشفاء منه ضعيفة للغاية .. وأننى لن أعيش لفترة طويلة ..

لذا فضلت أن أبتعد عنك وعن الطفلة .. ولن أتركها

لك لتتولى رعايتها بدلاً منى ومن أمها دون أن أخبرك بالأمر .. مفضلاً أن تتهمينى بالغدر والخداع على أن تضطرك عواطفك النبيلة إلى الإصرار على الارتباط بى برغم مرضى .. وعمرى القصير ..

كان أهون علىّ أن أكون كاذبًا وغادرًا فى نظرك عن أن أرى نظرة إشفاق فى عينيك .. لذا فبعد أن اصطحبت (منى) معى لرؤية أمها قبل موتها .. سارعت بإعادتها إليك دون أن أجسر حتى على مقابلتك ، أو التحدث إليك حتى لا أضعف بشأن هذا القرار الذى اتخذته .. لكن شاء الله بعد عودتى إلى أمريكا ومواصلتى العلاج .. أن أشفى تمامًا من هذا المرض .. وأكد لى الأطباء أن الخطر قد زال .. وأننى أستطيع أن أواصل حياتى بطريقة طبيعية ..

وما إن عرفت ذلك حتى أنهيت كل أعمالى فى (أمريكا) وهرعت إلى مصر محملاً بكل مشاعر الشوق والحب والأمل والتفاؤل التى حرمنا منها كثيرًا ..

عدت إلى حبى الوحيد الذى لم أعرف غيره فى حياتى .. والذى لم يعوضنى عنه أى شىء آخر تحقق فى حياتى .. عدت إليكِ وإلى ابنتى التى أحبتك كما أحببتك .. والتى أحببتها كما أحببتنى ..

لقد عانينا كلنا كثيرًا يا (ميرفت) .. وآن الأوان لكى نستريح .. ولكى ننعم بالحب والحياة اللذين حرمنا منهما ..

ألقت بنفسها بين ذراعيه وقد أجهشت بالبكاء قائلة :

- إننى لا أصدق أن كل ما تمنيته سيتحقق الآن مرة واحدة ..

رفع وجهها إليه وهو يمسح دمعها قائلاً :

- لا تبكى يا حبيبتى .. فلم يعد هناك ما نبكى من أجله غير السنين التى ضاعت من عمرنا دون أن نسعد بحبنا .. وعلينا أن ننعم الآن بكل دقيقة متبقية من هذا العمر ..

ومن بعيد وقف (مصطفى) يرقبهما وبصحبته (منى) التى أطلق يدها من يده قائلاً :

- هيا إذهبى إليهما ..

ركضت الفتاة نحوهما وقد أشرق وجهها البرىء بالفرحة .. وهى تناديهما :

- بابا .. ماما !

وتلقفاها بين أيديهما وهما يضمانها إليهما بحب وسعادة ..

* * *

[تمت بحمد الله]

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

زهور

السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب
أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

ا. شريف شوقى

بعد الانتظار

عانت (ميرفت) الكثير من الانتظار والحرمان العاطفى .. وقد حرمت على نفسها الحب والزواج من شخص آخر غير الذى احبته .. واخلصت له برغم وعوده الزائفة لها .. ترى هل يعوضها القدر عن هذا الحب الذى لم يعرف سوى الحرمان ؟

الثمن فى مصر ٢٥٠ قـ
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

مطابع